حسن كمال

لَدغات عقارب السَّاعة

مجموعة قصصية

دار الشروق

حسن كمال

لدغات عقار الساعة

قصص قصيرة

دار الشروق

لدغات عقارب الساعة

حسن كمال

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

الطبعـة الأولى ٢٠١٠

طبعـة دار الشروق الأولى ٢٠١٤

تصنيف الكتاب: أدب / قصص قصيرة

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

ww.shorouk.com
email: dar@shorouk.com

رقـم الإيداع ٢٤٥١١/٢٠١٣
ISBN 978-977-09-3283-4

إهداء

إلى أبي الحبيب..

هذه المجموعة هي آخر ما قرأتَ من كتاباتي.

رحلتَ بعدها، فتساءلتُ أنا في حيرة:

- هل كانت هذه المجموعة حَدسًا أم فألًا؟

رأيت ابتسامتك الهادئة أمام عيني، وسمعتُ صوتك الدافئ يهمس في أذني:

ـ الأمر أبسط من ذلك.. إنها الحقيقة!!

عندما فكرتُ في الآراء والانطباعات والأمزجة لم أكتب شيئًا.

سألتهم: لماذا؟ فأجابوني: لأن الإبداع حرية..

فسألتهم مرة أخرى: هل توجد حرية في اتجاه إجباري؟!

لم يجبني أحد حتى الآن...

حسن كمال

المهندس محمد محرم...
لا تزال تتحرك معي في كل ندواتي حتى الآن...
خالص شكري لك ولجميع أعضاء نادي القصة بنادي الصيد..

لدغات عقارب الساعة

□ من هنا أبدأ.. لأول مرة أعاني أرقًا بهذه القسوة.. تعلَّقت عيناي بعقارب الساعة، فاندهشت.. كيف أتت على ستين عامًا من عمري، وهي تزحف بهذا البطء؟! صدَق من أسماها عقارب.

بالأمس تزوجت «مروة» أصغر بناتي، بكت زوجتي كما فعلت عند زواج «محمد» و«منى».. لم أسخر منها كالمعتاد؛ فلأول مرة أشعر بغُصَّة في حلقي.. البيت سيخلو بعد ثلاثين عامًا من الزواج.. تسعة وعشرون عامًا منها كان في البيت أبناء يملئونه علينا.

□ (رمضان عدّى بسرعة قوي السنة دي).. قالتها زوجتي، هززت رأسي موافقًا، لكنه كان كئيبًا على غير المعتاد.. باستثناء أربع (جُمَع) أفطروا معنا فيها وسحورين.

□ قضينا العيد في شقة الساحل الشمالي، «مروة» وزوجها ينامان في الصالة؛ لأن الغرف الثلاث مشغولة بحسب الأقدمية (يااه... اللمة حلوة يا ولاد).

□ بعت شقة الساحل واشتريت فيلا ثاني صف على البحر، ابتسمت وأنا أتذكر شقة شبرا، غرفتين وصالة.. أنا وأبي وأمي وإخوتي الخمسة، كانت أيامًا جميلة.

□ «مروة» أنجبت ذكرًا أسمته «خالد» على اسمي.. لا أنكر سعادتي، ولا أنني تمنيت ذلك، رغم أني لم أصرّح به أبدًا.

□ (رمضان عدّى بسرعة قوي السنة دي).. قالتها زوجتي، هززت رأسي موافقًا.. (الأولاد أفطروا معنا مرتين فقط).

□ أرباحي من شركة المقاولات التي يديرها أخي تتزايد، رغم أن الصحف تتحدث كل يوم عن انخفاض أسعار العقارات.

□ «محمد» أنجب بنتًا ثالثة أسماها «چولي».. لم أفهم معنى الاسم، لكن زوجته أخبرتني أنه اسم فرنسي.. (ما لها الأسماء العربي؟).

□ بعت الفيلا التي نسكن فيها واشتريت شقة غرفتين في نفس الحي، بعد أن اشتكت زوجتي من قسوة السلم على خشونة ركبتيها، واشتكى كلانا من كثرة الغرف الخاوية.

□ «محمد» سافر إلى دبي مع أسرته، سيعمل هناك في مستشفى أمريكي.. حاولت أن أُثنيه، ذكَّرته أنه لا يحتاج نقودًا، فالخير كثير والحمد لله.. أصر لأن الحياة هناك.. (أنضف).

□ «منى» أنجبت طفلها الأول بعد ستة أعوام من زواجها.. سعادتي لا توصف؛ فقد كان تأخرها في الإنجاب ينغص عليّ حياتي.

□ اشتريت لـ«منى» سيارة جديدة (حلاوة المولود).

□ اشتريت لـ«مروة» سيارة جديدة (علشان ما تزعلش).

□ «محمد» وأولاده وحشوني، مضى عامان على سفره، يسأل عنّا على فترات، لا يبدو أنه يفكر في العودة.

□ خسرت نصف مليون جنيه في البورصة، أستحق هذه الخسارة.. فقد حاول أخي أن ينصحني، لكني أردت أن أخوض التجربة.

□ (رمضان عدّى).. قالتها زوجتي فهززت رأسي موافقًا.

□ ذهبنا للحج هذا العام للمرة الرابعة في عمري، كل مرة أجمل من سابقتها.. إلا المرة الأولى كانت الأجمل.

□ قررت الخروج من شركة المقاولات، وتوزيع نصف المال على أولادي بالتساوي.

□ تم استئصال مرارة زوجتي، بعد أن أصبحت آلامها لا تُطاق.. لا أدري ما الذي تغير بعدها، أصبحت صامتة معظم الوقت.. هل هذا ما يسمونه الاكتئاب؟

□ رمضان عدّى.. قلتها أنا فهزت زوجتي كتفيها بلا مبالاة.

□ الأولاد أفطروا معنا أول يوم فقط.

□ «محمد» سيعود لمصر بعد عشر سنوات.. كم بقي في عمري لأقضيه معه ومع أولاده؟؟

☐ «محمد» يزورنا كل شهر مرة.. (ربنا معاه).

☐ «منى» و«مروة» مشغولتان مثل أخيهما.. (ربنا معاهم).

☐ «محمد» و«منى» و«مروة»...

رغم أن عينيّ جرَتا سريعًا بين السطور، إلا أنهما توقفتا كثيرًا عند هذا السطر الأخير.. أسماؤنا هي آخر ثلاث كلمات كتبها في هذه المذكرات، بلا تعليق أو تفصيل، أتخيله مرتديًا نظارته السميكة بإطارها الأسود الأنيق، يخلعها ويلقي بقلمه، ويمسح دمعة سالت رغمًا عنه، تسيل من عيني دمعة رغمًا عني.. أحاول أن أمحو هذه الصورة من رأسي.

ربما قام ليفعل شيئًا ما ونسي أن يكمل؟ أتنهَّد... فأنا أعرفه جيدًا، لا يترك ما بدأ دون أن يُتمَّه. أظنه عزَّ عليه أن يصلنا بعد وفاته لوم لم نره حتى في عينيه يومًا وهو حيّ. أراجع التاريخ.. ألم يجد ما يكتبه بعدها لعامين كاملين؟ أمي لحقت به بعد شهور قليلة. وها أنذا أجمع ما تبقَّى من آثارهما قبل أن أسلم الشقة للمشتري.

أفيق على صوت زوجتي وهي تضحك:

ـ على فكرة..بنتك الكبيرة جايلها عريس.

أنظر إليها، حزني منعكس على وجهي.. تضطرب وتغيب ابتسامتها، تحاول أن تغير الموضوع:

ـ مش رمضان عدّى بسرعة قوي السنة دي؟!!

هي.. والثلاثة

ـ آآآآه..

قالتها وهوت..

نقطة النهاية، حيث تبدأ مرة أخرى. قصة قصيرة طويلة بالتكرار، كأن خط عمرها يمشي على هيئة دوائر متقاطعة، منذ جُذبت إلى تلك الحفرة العميقة ذات الجدران الملساء الزلقة.

تتسلق في صعوبة بالغة، كل خطوة تأكل من عمرها بلا رحمة، كلما رفعت رأسها بحثًا عن الهواء والنور، وجدت نفسها تعود إلى القاع. تتساءل عن ذنبها في حيرة، تؤكد لنفسها أنها شريكة بالتأكيد.. في كل شيء.

امتدت أصابعها إلى كل أركان الحقيبة؛ بحثًا عن مظروف المعاش، تأكدت من اختفائه. علامات تعرفها جيدًا، تنهال دموعها ساخنة.

السارق من لحمها ودمها، لا توجد احتمالات. تتنهد في حزن: أيُّهم فعلها؟ غالبًا ما سيكون هو، الغاضب الثائر، الذي يقف في وجهها مهددًا، حتى يحصل على ما يريد. يخيفها كثيرًا، تحاول ألا تريه ذلك أبدًا. لا تعترف حتى لنفسها بأنها تخافه، فهو في النهاية.. ولدها.

قد يكون الأحمق النادم دائمًا، الذي يبكي بين يديها آسفًا في خنوع على ما يفعله الآخر بها. تحبه، تكره ضعفه، لم يحاول أن يدافع عنها يومًا ما. يكتفي بأحضان ودموع لا تغني شيئًا.

تتمنى أن يكون العاقل الرزين، أحبهم إلى قلبها، رغم تجاهله الدائم لوجودهما. يتعامل كما لو كانا هو وهي فقط. لا يقبل حتى الحديث عنهما. ربما احتاج نقودًا ونسي أن يخبرها؟ أو لعله خجل من كثرة ما يحتاج؟.. ليته يكون هو.

تسمع باب الشقة يصفق، تتلوه صفقة باب الغرفة. تقفز من مكانها مهرولة.. تفتح الباب على ولدها الوحيد.. عينان حمراوتان، وجه شاحب، نظرات زائغة. تتأكد لها حقيقة تمقتها. تكشف عن ذراعه في غضب، آثار الحقنة واضحة فيه.

يلبس قناع النادم باكيًا. تضع رأسها بين كفيها في حسرة، تستجمع شجاعتها، تَعضُّ على شفتيها كاتمة نحيبها، لتبدأ معه من القاع.. مرة أخرى.

عطر الماضي.. والحاضر

صغير طائش، مشاكس متحرك، يكاد يقفز طيلة الوقت.

هكذا كان حاله منذ سنوات عديدة، أعجبني وقتها، ولا يزال يعجبني رغم أنه تغير كثيرًا، فقد أصبح هادئًا، منتظم الدقات.

أنا أيضًا تغيرت، يشهد على ذلك شعرٌ أبيض تسلَّل إلى رأسي في تغافل مني، وهدوء لم يكن من صفاتي حتى سنوات قريبة. لا عجب أننا هدأنا سويًّا فنحن.. رفيقا عمر.

قلَّما يشاركني الانفعال مع ذكرياتي، إلا في ذات المكان في ذات الساعة.. الصباح الباكر أمام البناية المجاورة لبيت أبَويَّ الذي تزوجتُ فيه.

هناك.. كنا نلتقي كل صباح على مدار دراستنا الثانوية. نمضي ما يقرب من نصف الساعة سويًّا، كل كلمة منها نغمة يرقص لها قلبي، كل نظرة منها جناحان ينقلاني إلى سمائها. أحلام بلا حدود.. نفس بلا هموم.

«أتوبيس» مدرستها الأصفر، يأتي في ميعاده تمامًا قبل أن تغادر.. تعطيني الإفطار الذي كانت تُعدُّه لي، تغلفه بابتسامة رقيقة:

ـ لازم تفطر كويس علشان تعرف تركّز.

أعرف خط سيره في حيِّنا.. ألقاه ثلاث مرات عند شوارع أحفظها عن ظهر قلب. يراني سائقه الشاب فيهز رأسه مبتسمًا في تفهم. أشير إليها بحب فتبتسم سعيدة.

ما زالت قدماي تأخذاني إلى هناك. غالبًا مع استيقاظ باكر يعقبه أرق، أو مع حالة أسميتها منذ سنوات شوقًا إلى الشوق. قرب سكني يجعل الأمر سهلًا، أجلس في سيارتي، أستمع إلى أغنية كنا نحبها. «أتوبيس» نفس المدرسة يمرُّ أحيانًا فيوقظ المسكين في صدري ليدق مستنشقًا عطر الماضي.

فراقنا جاء بسيطًا، بلا جراح أو صُراخ. أتذكره كتغيير أسنان عاشت معنا طفولتنا الأولى، جذبناها بأيدينا ونحن نغني: يا شمس يا شموسة.. شعرنا بفراغ مُلِئ سريعًا بأسنان دائمة.

دخولنا الجامعة كان قراءة لحقيقة لم نرها من قبل، هناك من هو أنسب لكلينا. طريقي إلى النهاية السعيدة طويل عليها.. لا سيما وهي تفوقني عمرًا بأشهر قليلة. بقيت أنا أول فارس أحلام، وهي أول أميرة حسناء. في داخلنا بقايا هوى صبا لم تَشُبه أي حماقات، قلوبنا كزجاجات، فُرِغ ما فيها من عطر، وبقيت رائحته الزكية في جدرانها.

نلتقي مصادفة فتتبادل قلوبنا السلام على استحياء. تلتقي عيوننا فنبتسم. أحلامي عن سعادة تمنيت أن أمنحها لها تتراقص أمامي. لا أجدها تفتقدني كثيرًا، أغلق عينيَّ على صورتها، وأواصل طريقي.

نهاية لقاءاتنا كانت بزواجها قبل أن أنهي دراستي. عرفت عن طريق المصادفة من أحد أصدقائي يومها.. اعترض قلبي، رغم أننا كنا في بدايات حب جديد. لم أنم من دقات مليئة بالشجن الغاضب. في الصباح الباكر، أخذتني قدماي باتفاق معه إلى مكاننا المعهود. تضافرت كل جوارحي على ترقرق دمعة لم أعرف مغزاها إلى الآن.

اتسعت عيناي في دهشة وأنا أراها أمامي بعد كل تلك السنين، هي.. هي.. تمسك بطفلة في يدها، الابتسامة الصريحة، النظرة المحلقة:

ـ أخبارك؟

ـ زي ما أنتِ شايفة.

يخرج تساؤل من ابنتينا يحمل براءة سنوات عمريهما:

ـ مين دي يا بابا؟

ـ مين دي يا ماما؟

نضحك سويًّا كما كنا نفعل من زمن، أشير إلى ابنتي:

ـ سلمى.. عشر سنوات.

ـ عندي أكبر منها تعيش مع أبيها.

تتنهد متابعة:

ـ اتطلقت.

أنظر إليها عبر ستائر السنين.. أهِمُّ بقولِ شيء ما. تعاجلني ببطاقة فيها أرقام هواتفها.

نظرتها الكسيرة، ويدها الباردة في كفي.. أخذا لي قرارًا بالاتصال بها.

بمجرد لقائي بزوجتي، حكيت لها ما حدث عن لقائي بجارة قديمة، ضحكت في سعادة صادقة عندما حكيت لها عن تساؤلات ابنتي. أشارت بأصابعها مُحذِّرة:

ـ علشان تعرف إن عليك حراسة.

مكالمتي جاءتها في اليوم التالي، بثَّتني همومًا لا بد أنها أرهقت قلبها، الذي كنت أراه ما يزال صغيرًا، لم أستطع أن أقاوم سحر اللحظة التي تمنيتها سنوات عديدة:

ـ مكن أقابلك في نفس المكان والميعاد؟

ضحكت في خجل هامسة:

ـ كنت هاطلب منك نفس الطلب.

التقينا في نفس المكان. نشوة غامرة تحيطني وأنا ذاهب إلى لقاء الحلم والماضي في بقعة طالما ارتوى منها قلبي. رأيتها واقفة هناك عن بُعد، اتسعت على وجهي ابتسامة من بقايا رائحة عطر بدا لي أنه لم ينفد بعد.

ـ وحشتني أوي.

قالتها ببساطة.. ابتسمت لأجيب، فسبقني رنين منبه هاتفي:

ـ هاصحِّي مراتي والأولاد علشان المدرسة..

ـ صباح الخير يا حبيبتي. اصحوا بقى. باتمشَّى شوية. صوتي متغير؟ لا.. مش تعبان ولا حاجة.

لأول مرة أشم رائحة تكاد تكون كريهة تخرج مع العطر القديم. زادَتها مكالمة الصغير التي تتكرر كل حين عندما يصرُّ على ألا يرتدي ملابسه إلا بعد أمر مباشر مني.

ـ هاشوفك تاني؟؟

قالتها بعد دقائق من اللقاء الذي تحول رغمًا عني إلى لقاء بارد.

ـ خلينا للصدفة.

غادرت، وفي قلبي شيء من الراحة. بعد دقائق عندما رأيت «أتوبيس» المدرسة، لم يرتعش قلبي، بل لاحظت لأول مرة أنه مختلف تمامًا عن القديم. لم يبق منه سوى الاسم واللون.. حتى السائق الشاب الذي كان يقوده، استبدلوا به عجوزًا، على شفَتيْه ابتسامة هادئة، ومن عينيه تخرج نظرة عميقة، أظنه يرى بها الطريق.. حتى نهايته.

بين ذراعـين

فريسة جديدة!! أهلًا، وبالطبع سهل مثل كل من سبقوك.

لقاؤنا الأول.. أعرف جيدًا كيف أبدأ معك.. آخذك بين ذراعي، جلدك يلامس جلدي، أمنحك دفئًا ونشوة لم تحلم بهما من قبل استرخ واسترح. مثلك مثلهم. تقوم شاعرًا بقوة جبارة، وبأنك الملك، وكل من دونك عبيد.. حتى أنا، لا أغضب من تعجرفك. أعرف الحقيقة.. أنت عبدٌ لي، آخذ منك أكثر مما تأخذه أنت مني. كلكم جنس واحد.. جنس مغرور وغبي.

اقترب، ذق واستمتع، أيام قليلة وأصبح أغلى عليك من زوجتك وأولادك وحياتك بأسرها.

أنا أيضًا استمتع مثلك. رجل جديد، جسد جديد، عقل جديد مسلوب الإرادة بين ذراعي. استمتع بقوتك، بأمرك ونهيك، وبرغبتك في أن تفعل أي شيء في سبيل البقاء معي.

لا أذكر كم مرّ عليّ من الرجال. لا أملك قلبًا لأعشق أيًّا منهم، فالأمر بالنسبة لي مجرد عمل، لكني تلذذت بأيامي معهم جميعًا.. عدا واحد منهم فقط.

ذلك الأحمق. سعى إليَّ من كل طريق. هو من بحث عني، أنا حتى لم ألقه مرة واحدة قبلها. أصرَّ، ألحَّ.. إلى أن تحقق له مراده. سمعته يومًا يحكي عن تخطيطه للوصول إليَّ. كم قضينا سويًّا؟ لا أذكر.. لكنه أقل من أمضيت معه وقتًا. شعرت بضعفه من أول يوم. متردد.. لا يعرف ما يريد. اعتدت عشرة الأقوياء؛ لذلك أمقت الرجل الضعيف. يلوم نفسه في اليوم مائة مرة على كل ما يفعل. يتمتم كالمحموم بكلمات لم أسمعها من سواه.. الخيانة، الضمير، الشرف. كل مرة يعود فيها إلى بيته أظنها بغير عودة. تمنيت ذلك، فلا هو أمتعني ولا أنا أمتعته، لكنه كان يعود. يمنحني جسده المتهالك، أشعر به يقاوم نفسه فتغلبه.

أذكر ذلك اليوم الذي وقف فيه ينظر إليَّ باكيًا، يلعنني ويلعن اليوم الذي رآني فيه.. لم أجبه بالطبع. يلومني على ما لا ذنب لي فيه.. جاءه خبر وفاة وحيدته وهو بين ذراعي.. فاعتبرها لعنة.. عقاب من الله. أغلب من عرفت من قبله وبعده كانوا متزوجين ولديهم أبناء. فلماذا لم أسمع عن هذا الهراء سوى معه؟ خرج من هنا صارخًا ولم أره بعدها أبدًا.

ليتك تكون مثل آخرهم، أفضلهم ولا شك.. كم قضينا معًا؟ لا أذكر.. أعوام طويلة، كان عنيفًا.. حتى أنا لم أسلم من غضبه وعنفه.. كان يصدر أوامره للجميع.. الوحيد الذي رأيته لا يهاب أحدًا، ولا حتى زوجته.. كان يتعالى على كل من حوله. عندما جاءه خبر إحالته للتقاعد من منصبه كان معي. تصورته سيحزن أو يغضب، يلعنني كما فعل الآخر. ظننته فقد عقله عندما سمعته يضحك.. أمسك بهاتفه، وتحدث بثقته المعهودة. تعالت ضحكاته بعدها. أحيل من أراد أن يتخلص منه إلى التقاعد.. كان يقول إنه لن يترك مكانه أبدًا، فهو أقوى منهم.. كنت أحب أن أراه وهو يتكلم، يصرخ، يعاقب.. لم يكن يهتم كثيرًا بالمال مثل الباقين. كان يعطي الجميع بسخاء.. لكنه رحل عني أيضًا.. هو من مات هذه المرة. كان مسنًّا رغم أنه لم يشعرني بذلك أبدًا.

الدور عليك أنت اليوم. كم تريد أن تبقى؟ هل ستسمع وتطيع؟ هل ستكون قويًّا أم ضعيفًا؟ سنرى..

لماذا تقف بعيدًا؟ اقترب. تعال وجرب. ذق مني. هل هذه نظرة اشمئزاز؟ لا أصدق!! تريد أن تتخلص مني؟ أيها المغرور..

الساعي ينقضُّ عليّ.. أنت يا من كنت تخاف خدشي تحملني هكذا؟ ماذا.. سيّدك الجديد لا يريدني؟ قل له لا. أخبره أنني الأساس وهم يتبدلون.

وها أنا ملقى في المخازن، ظلام ورطوبة وجرذان. إلى جواري كرسيّ خشبي متهالك.. ملت عليه في أول ليلة بصوت جريح:

ـ أنا كنت كرسي الوزير عشرة أعوام كاملة.

أجابني بصرير مقزز:

ـ وأنا كنت موجودًا في حمامات الوزارة عشرين عامًا أو يزيد.. هل ترى اختلافًا في النهاية؟

لم أجبه من يومها.. صامت إلى جواره، أنتظر وصول بديلي إلى المخازن يومًا ما، ليشفي شيئًا.. من غليلي.

الهامة المرفوعة

اختبأ خلف الأريكة متلاحق الأنفاس، يخشى أن يراه فينشغل عما يريده أن ينهيه، يدير وجهه إليه فجأة، فيخفض رأسه ويكتم أنفاسه، يدق قلبه دقات الانتظار المثير.

لا يشعر بالدقائق التي تمر عليه وهو ساكن في مخبئه، حساب الوقت لم يعد يهمه كما كان في الماضي. تضيق عيناه، ويتصلب إصبعه كلما تحرك الآخر، فهو لا يريد أن يفوِّتَ.. اللحظة الحاسمة.

تتسع عيناه وهو يراقب حركاته. التركيز الشديد باد عليه وهو يرفع رأسه ببطء، كفَّاه مبسوطتان على الأرض، يباعد بين قدميه قليلًا، يرفع ظهره بالتدريج ثم يفرد قامته فجأة ويثبت للحظات، ينهيها الضوء الصادر من آلة التصوير التي يحملها المختبئ، وصيحة فرحة تخرج من حنجرته.

يسقط الصغير جالسًا على حفاظته السميكة، يمد يديه اللتين اقتربتا من عامهما الأول نحوه، يقفز إليه ليحمله ويدور به احتفالًا بالهامة التي ارتفعت اليوم للمرة الأولى. فرحته ليست مبالغة، عشر سنوات من انتظاره جعلت كل ما يخصه مضروبًا في عدد لياليها الطويلة.

يبتسم الصغير في سعادة تمحو من صدره بقايا مرارة تساؤلات الفضوليين، وقسوة المشفقين. بكاء صلاة الليل، ودعاء الفجر ما يزال يتردد داخله في خفوت، ينظر إلى ما بين يديه، ويتنهد حامدًا الله. يتهمونه بتدليله!! لم يعد يهتم بما يقولون، يدلل فيه نفسًا تعذبت في انتظاره، تحت وطأة أيام لا تكترث بالعادّين.

ينظر في ساعته آسفًا . ينحني واضعًا الصغير في حب. ينادي الأم وهو يصلح من هندامه، يغادر في خطوات سريعة قبل أن يسمع بكاءَ الصغير، خشية أن يتأخر عن عمله مرة أخرى.

مع سبق الإصرار

استنشق الهواء البارد في سعادة. فرك عينيه من تأثير ضوء الشمس عليهما، رغم أن السماء مليئة بغيوم الشتاء البارد. فعلها في حركة آلية داعبت خياله كثيرًا طوال العامين الفائتين، عندما كان ينظر بعينيه الواثقتين من خلال فتحة عالية في زنزانته.. وقفة تتكرر في كل سجون العالم، لكنه كان يختلف عن الجميع، يفخر ويسعد كلما تذكّر يوم سجنه، يؤكد لنفسه أن الزمن لو رجع به ألف مرة، لفعل نفس الشيء.

ـ قتل خطأ!!!!

لا يحب هذا المسمى، ما حدث ليس خطأ، ربما كان غير متعمد، لكن يد الأقدار أخذت الرصاصة التي أطلقها في الهواء، ووضعتها في صدر من يستحقها.

أيام وليال، وجاره يحوم كالثعلب حول اقتطاع جزء من أرضه. قيراطان يمتدان إلى داخل أرض الجار، جعلاه يكاد يجن. يريد أن يمد سورًا يبتلعهما. لم يكن يعلم أنه بهذا يحاول أن يقتطع جزءًا من قلب «مجاهد».

تشاجرا كثيرًا.. تهديدات متبادلة جعلته يقضي الليل في أرضه خوفًا عليها، نائمًا على طينها الذي كان يحتضنه في حنان ورقة. في إحدى الليالي المقمرة حدث ما كان ينتظره. الغريم جاء برجاله لبناء السور في الليل، أملًا في أن يبقى الوضع على ما يصبح عليه.

صاح صيحته الشهيرة. أطلق رصاصه في الهواء محذرًا ومهددًا. سمع الصيحة المكتومة وأصوات الرجال. عندما وجد غريمه مُضرجًا في دمائه.. تأمله ذاهلًا متضارب المشاعر ، همس:

ـ سبحان الله!!

تلفت يمينًا ويسارًا، لم يجد أحدًا من أهله في انتظاره. إخوته لم يتغيروا عما سبق. طالما تخلوا عنه حتى قبل سجنه. زياراتهم له في محبسه أشَحُّ من زياراتهم لبيته. حضورهم كان سيدهشه ولا شك.

تذكر ولَديه، ابتسم.. لا بد أنهما يرعيان الأرض. وصيته الدائمة كلما رآهما في الزيارات المتباعدة، ألا يأتيا سويًّا، بل يزوره أحدهما، ويبقى الآخر لحماية قلبه

المزروع فيها.

ابتسم والسيارة تأخذه عبر الطريق غير المُمهد.. تهتز يمينًا ويسارًا، فيهز رأسه مبالغًا معها، وابتسامته تزداد اتساعًا. كل شيء كان ساكنًا في السجن، الألوان والأشخاص والأيام. الشيء الوحيد الذي كان يرتجف في عنف أحيانًا، هو قلبه الشجاع.. يتذكر النظرة التي رآها في عيني نصحي ابن جاره عندما نطق القاضي بحكمه. أضاف إليها هزة رأس وابتسامة مليئة بالحقد تؤكد أنه أزمع أمرًا ما.

ـ لو قربت من ولادي هأقطعك يا «نصحي».

انتفض فجأة وهو يتذكر تلك الجملة التي أخذ يكررها بصراخ هستيري والشاويش يجره جرًّا إلى خارج القفص. لازمت فمه في نومه ويقظته ليومين كاملين بعدها. وظلت في عقله طيلة سنوات الحبس. سؤاله الأول الذي يوجهه إلى كل زائر:

ـ عيالي بخير؟ يتبعه بسؤال آخر عن حال «نصحي».

طالما اندهش كثيرًا عندما يسمع أنهم جميعًا على ما يرام.

دهشته كانت تتزايد عندما يسأل ابنيْه عنه، فيؤكدان له أنه لم يتعرض لهما حتى بالقول. يحذرهما مؤكدًا أنه ثُعبان مثل أبيه. ينتابه خوف مَشوب بالغضب، إذا هزَّ أحدهما كتفيه في لا مبالاة.

ـ هنا يا أسطى.

يقفز من السيارة، يمشي مخترقًا الغيطان في سعادة. الظلام بدأ يلف القرية، يعكر عليه رغبته في أن يراها بكامل هيئتها، يُعزّي نفسه بأنه يحفظها جيدًا،والصباح رباح.

يقترب من أرضه الحبيبة فيدق قلبه في شوق يماثل شوقه القديم، ليوم حصاد القطن. يأخذ نفسًا عميقًا؛ ليشتم رائحتها التي يحفظها جيدًا.. يخرجه في لهفة.. ليس بعد.. خطواته تتسرع وتتقارب، يضطرب قليلًا عندما لا يجد في أنفه رائحتها. لأول مرة يلعن السجن وأيامه التي غيرته وشوشت رائحة أرضه في أنفه.

شجرة الجميز الضخمة الموجودة على رأس الأرض، تبدأ في الظهور. يلوح لها بعينيه.. يهمس:

ـ كنت في السجن.

يُجيل بصره في أرضه مشتاقًا، يفزع عندما يراهم. عشرات الرجال يقفون فيها بقامات مشدودة وهامات عالية، يجري عليهم صائحًا:

ـ انتو مين؟؟

يقترب منهم أكثر.. لا يتحركون. ينقَض على أقربهم إليه ممسكًا بتلابيبه، يندهش عندما يجده يرتدي جلبابه. يخرج صوته مليئًا بالدهشة والحيرة:

ـ خيال مآتـة؟!!

يلتفت إلى الباقين. كلهم يرتدون ملابسه القديمة.. ينحني ليأخذ قبضة من طمي أرضه. لم يعد دافئًا ولا حنونًا كما كان.. أصبح أشد قسوة من أرضية زنزانته.

يعدو نحو بيته منادًا على ولديه. يتوجس خيفة عندما يجد الدار خاوية. يتساءل في فزع إذا كان «نصحي» فعلها يوم خروجه من سجنه ليحرق قلبه.

ينتبه على أصوات صاخبة يجري نحو مصدرها. الرائحة تتزايد كلما اقترب لتزيد من حيرته. يرشده أنفه وأذنيه إلى نفس المكان المشهود، القيراطين اللذين دفع من عمره ثمنًا لحمايتهما.

يقف مشدوهًا أمام الخيمة المزركشة الضخمة، أصوات الغناء والضحك ورائحة الشيشة والحشيش تكاد تذهب بعقله.

يدخل صارخًا.. ينفض المولد ولا يبقى أمامه سوى ولديه و«نصحي»، الذي وقف وعلى وجهه نفس الابتسامة الصفراء القديمة.

ـ حمد لله على السلامة يابا.

قالها كبيرهما وهو يجري نحوه.

يدفعه «مجاهد» بعنف، يلقي على «نصحي» نظرة طويلة، يتلوها بأخرى على أرضه، يهز رأسه في حسرة.

ـ ما حدش هَوّب ناحية الأرض... «نصحي» ساعدنا في حمايتها، والحمد لله بنكسب كويس.

قالها وهو يشير إلى الخيمة الكبيرة.

يجيبه بصفعة قاسية. يمشي صوب أرضه متجاهلًا نداءه، يجيل بصره في أنحائها، باحثًا عن نقطة بداية، مستعينًا بفجر يحاول أن يشق طريقه في السماء. يدهشه تجمع الغربان على رءوس (خيالات المآتـة). يصرخ غاضبًا:

ـ هششش.

يتجه إلى أقربهم منه.. يحاول أن يقتلعه، يشعر به يقاومه فتتضاعف دهشته، يكسره في قسوة ويلقيه بعيدًا.

يلتفت إلى الثاني، ينزعه من أرضه نزعًا، مقاومته أشد.. نعيق الغربان الغاضب يبث في قلبه شيئًا من الخوف، يزداد وهو يشعر بخيالات المآتة تستعد للانقضاض عليه من كل اتجاه. يسقط على طين أرضه فيتلقاه قاسيًا جافًّا.. يتلفت يمينًا ويسارًا.. يحاول أن يستعيد شجاعته لينهض.. متجاهلًا القهقهات التي خرجت من «نصحي» شامتة... تشق عنان السماء.

قاعـدة.. تمثال الأسد!!

يجلس في مكانه المعتاد كل يوم.. على مطلع الكوبري.. إلى جوار تمثال الأسد الذي لم يعد يلتفت إليه أي من المارة في زحام شديد لا يميزون فيه إن كان التمثال لأسد أم لنعجة.

يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته وهو يحدق في نقطة وهمية... كل من يمعن النظر في عينيه يقسم أنه، وعلى الرغم من ذبول عينيه والإفرازات السميكة التي تحيط بهما، يبدو كأنه يتأمل. ملابسه ليست بالقذارة المعتادة في أقرانه. ربما لأنه يقفز من آن لآخر في النهر بملابسه دون أن يبتعد عن الشاطئ. يخرج بعدها ليخلع جلبابه ويعلقه على الشجرة ويجلس عاريًا يدخن سيجارته بنفس النظرة الثابتة.

يدير رأسه فجأة لينظر إلى الكلب الأجرب الذي يقترب من قاعدة التمثال رافعًا ساقه استعدادًا للتبول، يهب قائمًا ويركل حجرًا تجاهه، ينطلق الكلب جاريًا رغم أن الحجر لم يصبه.. أصاب قدم ذلك الشاب اليافع الذي يلف ذراعه حول عنق فتاة صغيرة.. يقفان خلف عمود إنارة لا يخفي منهما شيئًا. كان على وشك أن يختلس منها قبلة.. لكن الحجر الذي أصابه في قدمه جعله يجرها ويبتعد مسرعًا دون أن يلتفت خلفه.

يهم بالجلوس مرة أخرى. الأتوبيس المزدحم يتهادى ببطء. سيدة سمينة يبرز جسدها بأكمله من الباب الخلفي، كل من يراها من المارة يحتار لأنها لم تسقط منه!! يتساءل البعض ساخرًا عن الكيفية التي تعلق بها الجسد في ذلك المكان. يجري هو إلى جوار الأتوبيس ويدفعها إلى الداخل فتتعالى صرخاتها. تختفي الأجساد التي كانت متزاحمة كأنما خلقت لنفسها فراغًا جديدًا في الداخل.

يقف فجأة كما جرى فجأة. يلتفت إلى الصغار الحفاة الذين تجمعوا حول سائح مخمور، يهرول جندي الشرطة في اتجاههم فيتفرقوا. يصطدم أحدهم بعجوز فتنفرط حبات الجوافة من الكيس الذي تحمله.. يتخاطفونها فيتحرك هو تجاههم. يكتفون بما جمعوا ويطلقون سيقانهم للريح. تتسمر المرأة مكانها فيخطف حبة واحدة ويبتعد فتجمع ما تبقى وهي تسب وتلعن زوجها وأولادها والأيام. يراقبها الجندي ساخرًا وهو يدس في جيبه الجنيهات الخمسة التي نفحه السائح إياها.

تمتد يده إلى الصافرة الحمراء المعلقة في رقبته بخيط (دوبارة) قديم. تتعالى صافرته وهو يحاول تفريق الطريق.. ينطلق صرير العشرات من فرامل السيارات التي تكاد تصدمه، يجدها العجوز المنتظر على جانب الطريق فرصة جيدة ليعبر الطريق على مهل.. تتعالى ضحكاته وهو يقفز فوق مقدمة إحدى السيارات، يعود إلى مكانه بعد دقائق، يسحب أنفاسًا عميقة من سيجارته، يأخذ رشفة من زجاجة الماء الفارغة.. تقع عيناه على الجريدة الممزقة التي تطايرت أمامه، فيلقي بها إلى مياه النهر وهو يضحك.

تتوالى الشكاوى على قسم الشرطة كل يوم.. يشيح الضابط برأسه في غضب:

ـ مجذوب!! هذا ما ينقصنا.. ثم يغرق وسط أوراقه ولا يتغير أي شيء.

لكنه اختفى تمامًا بعد اليوم الذي وجد فيه الطريق خاليًا من السيارات، فاختبأ حيرة وخوفًا. دراجات نارية وسيارات فارهة تحمل أعلامًا ظهرت فجأة... فصرخ مندهشًا في سعادة وأخذ يجري في وسط الموكب وهو يقهقه.. لم يره أحد بعدها.. قتل؟ سجن؟ في المستشفى؟.. لا أحد يعرف، ولا أحد يجرؤ على السؤال...

بعد أيام ظهر في نفس المكان واحد جديد.. شكله يطابق الآخر تمامًا... لكن عينيه خاليتان من أي شيء مهما أمعنت النظر فيهما.. ملابسه بالقذارة المعتادة. يبول على قاعدة التمثال كل يوم قبل وبعد الكلب الأجرب، يتدلى لسانه في بلاهة وهو يرى الشاب يُقبل فتاته خلف عمود إنارة لا يستر أحدًا.. يضحك عندما يرى عجوزًا تسقط من الأتوبيس المائل، يتكوم في مكانه منتظرًا ما سيلقيه له المارة كل يوم. لم تعد هناك شكاوى تذهب إلى قسم الشرطة، فالكل يراه.. مجذوبًا طيبًا.

رائحة غير نفاذة

القصة الحاصلة على جائزة في مسابقة
ساقية الصاوي للقصة القصيرة عام ٢٠٠٩.

لم أتخيل أن أجد نفسي يومًا أدور بسيارتي الفارهة خلف سيارة (الروبابيكيا) المتهالكة، أقف مراقبًا عن بُعد، يبدأ هو في مفاوضة الزبائن، أتدخل في اللحظة الحاسمة لأنقذ المفاوضات. ترتسم على وجهه ابتسامة صفراء. نواصل رحلتنا الطويلة، شوارع راقية، حارات لا تسمح بدخول السيارة، محال للتُّحف.

يغلبني الضجر أحيانًا، وأنا أتساءل كم من الوقت أحتاج لأجمع حصاد خمسين عامًا؟ ما يزيد قليلًا عن ضعفي سنوات عمري، لا يهم. سأحتمل كل شيء في سبيل أن أجدها مرة أخرى، مهما طالت رحلتي خلف ذلك الرجل ثقيل الظل.

أنا أكبر أحفادها، أكثر من قضى منهم ليالِيَ في بيتها الذي يحمل لي كثيرًا من الذكرات الآسرة، برائحته المميزة ودفئه الحنون. بيني وبين كل ما احتواه حب يفوق المعاني البسيطة للأشياء. ربما نبع من ارتباطها بمراحل نموي المختلفة. طالما تمنيت أن تصل قامتي إلى ما يكفي؛ لأنظر من العين السحرية النُّحاسية مثل الكبار. سعادتي كانت لا تُوصف عندما نجحت لأول مرة دون أن تحملني جدتي.

ـ لا تنظري من العين السحرية.

كنت أقولها صائحًا، ثم أجري إلى مطبخها المزدحم لأحضر كرسي الحمام الصغير. أضعه وأقفز فوقه ناظرًا، ثم أقرر بكل فخر مَن بالباب. تمتد يدي إلى المِقْبض النحاسي الضخم، يعاند كفي الصغير، فتجيء يدها الحنون الدافئة فوق يدي لنفتحه سويًّا.

دقات الساعة البندولية الضخمة لم تزعجني أبدًا، كنت أُعدُّها وأنا نصف نائم إلى جوارها؛ لأجيبها عندما تسألني عن اقتراب موعد صلاة الفجر، أو لأماطلها صباحًا عندما أريد أن أضيف ساعة أخرى إلى ساعات نومي، في أيام الإجازات التي كنت أقضيها معها. عندما تعطلت مرة أخرى، أخذتها كالمعتاد إلى نفس المتجر، نقلت إليها خبر استحالة إصلاحها، وأنا أداري حزني، تنهدَت:

ـ اتركها في مكانها، اشترِ لنا واحدة أخرى، ضعها إلى جوارها.

«بيت حماتي يشبه المُتحف!».

تكررت هذه الجملة من أمي كثيرًا، يهزُّ أبي رأسه في سخرية وهو يجيب:

ـ لا تريد أن تفرط في أي شيء.

حوار قصير سمعته كثيرًا على مدى السنوات الماضية، ينتهي غالبًا بتحذيره لنا من الحديث في هذا الأمر؛ لكيلا نغضبها. لا أدري ما الذي جعله يغير رأيه هذه المرة. ضَعف جدَّتي التي أصبحت تقضي معظم الوقت نائمة في سريرها؟ نقود أبي التي تزايدت بما يكفي لتأثيث شقة أخرى دون أن يتأثر رصيده كثيرًا؟ نصف الأسبوع الذي نقضيه في بيتها بالتبادل مع عمتي، بعد أن ساءت حالة الأم كثيرًا؟ بما يستتبعه أحيانًا من زيارات أصدقائه وموظفيه لإنهاء بعض الأوراق العاجلة.. ربما كل ذلك إضافة إلى جملة أمي الشهيرة التي أصبحنا نسمعها بصفة يومية.

ـ أسبوع ويصبح كل شيء جاهزًا.. استضيفيها عندك بحجة تغيير الجو.. لا لم تَعُد تعارض كعادتها.. ستكون في منتهى السعادة فأنا سأجعله قصرًا.

كانت هذه مكالمة أبي مع شقيقته، حاولت معارضته فأسكتني بصيحة غاضبة، أوامره كانت حاسمة، تألمت عندما تخيلت يومًا يصبح فيه أمري أقوى من أمره. تمتمت بدعاء خافت أن يديم الله عليه صحته.

وقفت معه في اليوم التالي، كتيبة من عمال الدهانات والأرضيات يعملون بجِد. رخام وأخشاب تكسو الأرضيات بدلًا من البلاط القديم، ألوان حديثة متباينة للحوائط، محتويات الشقة بالكامل تملأ مدخل البناية. بائع (الروبابيكيا) لم يستطع أن يخفي انبهاره:

ـ يااه!! كل هذه الأشياء من شقة واحدة؟!

إنه على حق، خمسون عامًا وجدتي تضيف دون أن تستبدل. أبي وأمي كانا على حق، لكني رأيت أن جدتي تظل في النهاية كما كانت في البداية، صاحبة حق التصرف الأوحد في تلك الأشياء.

بدأ أبي مفاوضات البيع، لم يكن الأمر يعني له كثيرًا، غالبًا ما يرضخ لمساومات البائع المحترف.

ـ ماذا عن هذه الملابس؟ هل ستبيعونها أيضًا؟ قالها وهو يشير إلى ملابس جدي الملقاة إلى جوار الدولاب المُفكك.

ـ بالطبع لا.

قلتها وأنا أنظر إلى أبي في استعطاف، طالما دخلت على جدتي لأجدها تعيد ترتيب هذه الملابس في «الدولاب» بكل عناية، تأخذ منها قطعة، تشمها في عمق، تناديني:

ـ تعال لتشم رائحة جدك الذي لم تره.

أقترب منها، أقبلها، أقرب ما أعطته لي من أنفي، أبحث عن رائحته المزعومة، أعاجلها ضاحكًا:

ـ لا أشم سوى رائحة النفتالين يا جدتي.

ـ هناك رائحة أخرى، حاول.

أعلن استسلامي بعد لحظات، تهز كتفيها ضاحكة:

ـ كل منا يشم ما يعرفه. عيني عليكم يا ولادي.

أعترف أنني لم أشم أبدًا رائحة أخرى، لكنها نجحت بمرور السنوات في أن تجعل الرائحة النفَّاذة الخارجة من هذا الدولاب تعني ليَ الكثير؛ لذلك أعلنت رفضي التام لبيعه بما يحتويه. حاول معي أبي، وحاول التاجر أكثر. عندما رأى ولده الشاب يوشك على البكاء، رقّ قلبه، انتهزت الفرصة ونجحت في الإبقاء على غرفة النوم بأكملها.

عندما دخلت جدتي البيت لأول مرة بعدها، حاول أبي إقناعي بأن أكون معها وحيدًا. رفضت بإصرار. أخذ يمهد لها طيلة الطريق بأنه أعدَّ لها مفاجأة مدهشة. يحدثها عن فنون الديكور والمدنية الحديثة، لم تجبه، كانت تظن الحوار لا يعنيها.

توقعت منها غضبًا يختلف عن غضبها الرحيم المعتاد. فاجأتني بصمت مطبق، تلفتت حولها كصغير تائه يفتقد أبويه، على وجهها نظرة حزن هائلة، ألقت بجسدها المتهالك على أقرب كرسي لها، قبَّل أبي يدها فسحبتها منه في عنف:

ـ هذا ليس بيتي.

قالتها بضعف شديد، حاول أبي الحديث، أسكتته دموع تفجرت من عينيها، وهي تقول بصوت مُتهدّج:

ـ ماذا فعلتم في سنوات عمري؟

التفتت إليَّ، منحتني نظرة عتاب قاسية، قبلتها باكيًا:

ـ غرفة نومك كما هي يا جدتي. قامت بسرعة لم أرها في حركتها منذ سنوات، فتحت دولابها وأخرجت منه قطعة من الملابس لتشمها كالمعتاد. احتضنتها في شوق، ألقت بجسدها على سريرها وأدارت لنا ظهرها. غادر أبي وهو يتمتم بكلمات غاضبة.

جلست إلى جوارها، أناديها. أسمع نحيبها الخافت، فتزداد دموعي جريانًا:

ـ معي رقم هاتف التاجر يا جدتي.. سأعيد لك كل شيء.

تستدير في ابتسامة طفولية تهز قلبي، تحاول أن تكفكف دموعها وهي تسأل:

ـ صحيح؟

ـ طبعًا صحيح.

أمسك بالهاتف لأحادث التاجر، تشير إليَّ:

ـ أهم شيء الصندوق الخشبي، أهم شيء الصندوق.

أهزُّ رأسي متفهمًا، على وجهي ابتسامة حانية، أعرف صندوقها الذي ورثته عن أمها، كجزء من جهازها كعروس.

رحلتي مع التاجر استغرقت يومين كاملين، فاجأني بورقة صغيرة فيها كل ما اشتراه منّا ولمن باعه، نفحته مكافأة سخية ووعدته بالمزيد. ما أخذه تجار التُحف كان سهل الاستعادة، ما حصل عليه الفقراء كان أسهل، مقاومة الأحياء الراقية كانت تنتهي عندما يسمعون قصة الشاب الذي يجمع حاجيات جدته.

ـ بقي الصندوق.

قلتها للتاجر، هزَّ رأسه في يأس، أخبرني أن من أخذته سيدة عجوز في عمر جدتي، أوصته على مثيله منذ ما يقرب من عام كامل. بعد أن باعت ابنتها صندوقًا لها أثناء وجودها في المستشفى.

دخلنا عليها، تجلس في سريرها إلى جوارها الصندوق مفتوحًا، تراصت فيه أدوية عديدة، أنظر إليه في شوق، أشعر برائحة دولاب جدتي النفاذة في أنفي. حكيت لها الحكاية، ظننتها ستتأثر بقصة سيدة في مثل عمرها. هزت رأسها في لا مبالاة، خرج صوتها جافًا وهي تقول:

ـ لقد أصبح صندوقي، لن أبيعه مهما حدث.

حاولتُ كثيرًا، صعبة المراس ولا شك، تكسوها قسوة لم أرها يومًا في جدتي. قمت يائسًا، ربما تقتنع جدتي بما حصلنا عليه، ربما يأتي لي التاجر بصندوق مشابه.

نادتني قبل أن أخرج من الباب، استدرت في أمل، جاء صوتها جريحًا:

ـ سل جدتك إذا كانت تقبل أن تأخذ الصندوق وتعطيني حفيدًا مثلك، أخبرها أنها محظوظة، فأنا أحفادي لا يختلفون عن أبنائي.

عدت لجدتي بحصيلة من الأثاث والحكايات، هزت رأسها بأسى وهي تسمع حكاية صاحبة الصندوق الجديدة، بَعَثَت إليها برسالة معي، لم تعد تفتقده بعدها.

آخذها لزيارتها مرة أو مرتين في الشهر، أجلس إلى جوارهما، تتحاوران، تضحكان، تستعيدان ذكريات رقيقة، أعجز عن ربطها بالصندوق الخشبي المتهالك، الذي عادةً ما يبدأ بذكره الحوار.

النصف الحـيّ

أي سواد هذا الذي يحيط بي من كل جانب؟ لا يبقى لي من النور سوى ما يحيط بهذا السرير الذي يرقد عليه هذا الرجل الحبيب.. أبي.

جالس إلى جوار سريره أنتظر منه أي شيء. ربما أتمنى منه نظرة عين، ابتسامة، زجرة، صفعة.. أي شيء. لكن.. لا شيء!!!

أقرّب شفتي من أذنه.. أحكي له حصاد أيام مضت، أحدثه عن زوجتي وأبنائي، أقرأ له الجريدة التي اعتاد أن يقرأها بنفسه. أغني له أغنيته المفضلة التي أورثني حبها بصوتي الذي طالما رآه ـ هو فقط ـ جميلًا:

ـ عاوزنا نرجع زيّ زمان قول للزمان ارجع يا زمان... وهاتلي قلب لا داب ولا حب ولا انجرح ولا شاف حرمان...

لأول مرة أفكر في هذه المتلازمة.. هل هذا ما يصل بقلوبنا إلى النهاية؟

تضيق حلقة الضوء أكثر.. تركز على وجهه الذي أحفظ جغرافيته جيدًا... المرسوم عليه هو خليط من الألم والخوف واليأس والشوق. لا بد أن هذا يولّد في داخله شعورًا مقيتًا... لولا خليط رقيق من الرضا والسعادة يرتسم أحيانًا... فأتساءل عن مصدرهما؟ هل كما يقولون يلقي بإشارات وهو في هذه الظلمة القاسية؟ رؤى أم أحلام؟

تزداد مساحة الألم على وجهه. أقترب منه وأهمس:

ـ إذا كنت متألمًا فلا تتمسك بهذه الدنيا.. أعلم أنك عاجز عن الحياة.. لكن هل أنت عاجز عن الموت أيضًا؟!!

تغلبني موجة قصيرة من البكاء.. أنادي الطبيب:

ـ يبدو متألمًا.. ألا يمكن أن تعطيه مسكّنًا لألمه؟

يبتسم ابتسامة صفراء بلا مبالاة:

ـ إنه نصف ميت يا ولدي..

أهزّ رأسي مؤمّنًا:

ـ أتفق معك.. أنا أتحدث عن نصفه الحي...

يغادر دون أن يلتفت إليَّ. تدخل الممرضة لتقليبه. تحاول أن تحمله فأمنعها...

ـ أنا سأحمله.

ـ احترس.. فظهره مليء بالقُرَح.

أحمله في حرص وأنا أبكي. أول يوم مدرسة في حياتي. حملني داخلًا من باب المدرسة وأنا أبكي. كان يحملني ليضعني على طريق البداية.

الألم يشتد عليّ. جسدي بأكمله يؤلمني. أراه يبكي في الخفاء يوم زواجي. رغم أنني كنت أظن الأمهات فقط يبكين. جريت عليه واحتضنته وبكيت معه، بكى كل من حولنا في لحظة.

ـ أنزله.

قالتها الممرضة فأنزلته على مهل، أُقبل جبهته وأنا أضعه على السرير:

ـ إذا كنت تريد أن تبقى من أجلنا فلا تفعل!! إن كان رحيلك سيريحك فارحل.

تضيق دائرة السواد من حولي.

تهمس الممرضة:

ـ يا ولدي اذهب لترتاح في بيتك قليلًا. فهو لا يسمعك ولا يراك...

أهزُّ رأسي رافضًا:

ـ أنا أسمعه وأراه.

أكاد ألمح ابتسامة تتراقص على شفتيه:

ـ هل أنت راضٍ عنّي؟

أنتظر الرد فلا يأتيني...

ـ أنزله.

قالها اللحّاد فأنزلته بحرص شديد. دموعي تنهمر بغير توقف. كنت أحمله أنا هذه المرة لأضعه في طريق النهاية. الرمال التي أهيلت على جسده كانت تلسعني كشرر من نار.

ـ ستبقى في قلبي حتى آخر يوم في عمري.

قلتها مع آخر حجر سد الحفرة التي يرقد هو فيها. شعرت لحظتها أن الظلمة أحاطت بي أنا لا هو.

الظلمة تزيد من حولي. كم لبثت؟ تقريبًا مثلما لبث هو، الآلام شديدة، أريد أن أصرخ فلا أستطيع.

ـ أنا سأحمله.

يرفعني ولدي عن سريري. عيناي المغلقتان ليس أمامهما إلا ظلام دامس. يميل على أذني وهو يهمس:

ـ إن كان رحيلك سيريحك فارحل. ولتعلم أني أحبك.

أحاول أن أبتسم في وسط الظلمة التي تحيط بي فلا أستطيع. تظهر الدائرة المضيئة أمام عيني مرة أخرى. هذه المرة أرى فيها ولدي إلى جواري أنا وأبي. يقترب أبي ليأخذ بيدي، أفلت يد ولدي برفق. أودعه بنظرة من عيني المغمضتين. أذهب مع أبي الذي لم يعد عجوزًا كما مات. أتنهد بارتياح فتختفي آلامي تمامًا...

حقوق مسلوبة

ابتسمَ سعيد، وهو يجرجر قدميه ماشيًا وسط القطيع المتجه إلى السرادق المقام في الميدان الكبير. تأتيهم إشارات من قائد المسيرة، فيرددون في حماس صادق ما يهتف هو به. حماسهم ليس ناتجًا عن إيمانهم بما يقول، فمعظمهم لا يدرك معنى كلماته. حتى أن سعيد غالبًا ما تضيع منه بعض الكلمات، فيستبدلها بآهات عالية على نفس لحن الهتاف، فتفي بالغرض. عند مدخل السرادق، يأخذ كل منهم نصف سبب حماسه.. نصف العشرة جنيهات التي ستكتمل في جيبه بعد انتهاء المؤتمر على خير.

جلسته جاءت إلى جوار المعلم عزوز، صاحب المقهى الذي ينطلقون منه، والذي يعتبر في عيني سعيد رمزًا من رموز الثقافة في المنطقة. فهو يستمع إلى نشرة الأخبار، ويبدو عليه فهم فحواها، ويعرف كل ما جاء في الصحف، التي يقرأها له الأستاذ سمير المحامي يوميًّا، ويشرح له ما فيها بالتفصيل.

ـ هو لسه كتير؟

جاء السؤال المعتاد من سعيد للمعلم عزوز.. أدهشته إشارة المعلم له بالصمت والإنصات على غير المعتاد. فهو عادةً ما يبتسم ساخرًا وهو يقول له:

ـ مستعجل على البريزة؟ هانت يا سيدي...

هذه المرة رآه منصتًا تمامًا، حاول أن يفهم ما يقال.. لم يفهم شيئًا، فالتفت إليه مرة أخرى وهو يسأل:

ـ هي بتقول إيه؟

أجابه الرجل بصبر نافد:

ـ بتتكلم عن حقوق المرأة يا سيدي...

سكت سعيد قليلًا... هرش رأسه في حيرة:

ـ يعني إيه؟

هذا السؤال يستفز كل ملكات المعلم عزوز الثقافية... فهو عادةً من يسأل المثقفين من رواد المقهى نفس السؤال. لذلك (انجعص) في كرسيه وتدافعت من فمه كلمات متتالية لم يفهم منها سعيد شيئًا. فابتسم في حرج وهو يقول بصوت منخفض:

ـ لا مؤاخذة يا معلم عزوز. أنا بسأل على حقوق جماعتي. أصل شيخ الجامع النهاردة برضه قال إن الراجل منّا لازم يدِّي مراته حقها، وأنا اتكسفت أسأل يعني إيه...

هزّ عزوز رأسه بفهم، وهو يضحك ساخرًا:

ـ لو على مراتك يا سعيد الحكاية بسيطة. لقمة حلوة وهِدمة حلوة ما تبخلش عليها...

طأطأ سعيد رأسه في خجل. أكل بيته مرهون بنقود يأتي بها زوج، يصف نفسه بأنه على باب الله. وقطعتي الملابس التي تملكهما هي، لم تتغيرا منذ سنوات. لا يذكر حتى إن كان هو من جاء لها بهما أم لا. لكنه يراها كثيرًا وهي تضيف إليهما رقعة جديدة، فتبتسم راضية. سألها عن سببها فقالت: إن الرقع لا تظهر في جلبابها الأسود. على عكس جلبابه البني الكالح، الذي تبدو رقعه واضحة لمن يراه..

شعر المعلم عزوز بما يدور في رأس سعيد. ابتسم مهوِّنًا:

ـ كل برغوت على أدّ دمه يا سعيد. أنت ممكن تبسطها بالنعمة اللي ربنا مديها لك.. الصحة...

نظر إليه بدهشة وأمل.. فأردف الرجل بثقة:

ـ ما هي الستات ليها برضه نِفْس يا سعيد.. يعني لما تروح بالليل والشوق ياخدك لمراتك لازم تفهم إن هي كمان بتعوز منك حاجات. يعني هي برضه لا مؤاخذة بتحب تشوفك زي ما أنت بتحب تشوفها، وبتحب كل اللي أنت بتحبه. ما تدخلش على الجَد على طول.

ثم مال عليه هامسًا:

ـ لازم تبسطها زي ما هي بتبسطك...

ابتسم سعيد في خجل... فهو لا يذكر متى رأى جسد زوجته آخر مرة. ربما تحفظ أصابعه تضاريس جسدها جيدًا، أما عيناه فلا. طقوسه في اللقاء ثابتة.. ظلام دامس.. لحظات ويرفع جلبابه واضعًا طرفه في فمه ليتلاقى ما يتلاقى من الجسدين، ويلتقي الجلباب البني مع الجلباب الأسود، فيتعالى صوت (خروشة) كيس القمامة البلاستيكي الذي تضعه زوجته على صدرها تحت الجلباب ليحميها من رطوبة الأرض التي لا تجف أبدًا.

تغيب ابتسامته سريعًا، يهز رأسه لائمًا نفسه، وهو يحاول أن يتذكر تفاصيل جسدها الذي ما زال فائرًا بالرغم من كل شيء.. كيف حرم نفسه من ذلك؟ تثيره الأفكار.. يشعر بالرغبة تجتاح جسده، وهو يتخيل زوجته.. ذلك البئر الذي اعتاد أن يلقي بداخله كل مشاعره، بغير تفكير. إذا تمنعت عنه في غير الأيام التي يحفظها جيدًا، يدرك مباشرة أن الماء مقطوع عن المنطقة منذ أيام. فيكتم رغبته وينام. أو تلح عليه الرغبة فينطلق إلى المسجد الموجود في الميدان الكبير؛ ليعود حاملًا صفيحة كبيرة من الماء.

بعدها غالبًا ما يكون حمله الثقيل أطفأ رغبته التي كانت محمومة. فيتأجل لقاؤهما إلى أقرب فرصة، والفرص كثيرة... فهو يلاقيها إذا عاد محملًا بالطعام احتفالًا برجولته، وإذا عاد خالي الوفاض ليتشاغلا عن جوعهما، يلاقيها فرحة وحزنًا، عقابًا ورضا، مللًا وانشغالًا.. أما اليوم فقد أثار في رأسه المعلم فكرة جديدة.. أن يلاقيها.. متعة!!

يلتفت إلى المعلم وهو يفرك يديه. يخجل عندما يشعر أنه يقرأ ما في صدره، فيعالجه باضطراب:

ـ وإيه غير الموضوع ده يا معلم؟

يضحك المعلم:

ـ فيه حاجات تانية كتير.. بس أنت ما حيلتكش حاجات تانية يا سعيد..

اعتدل في جلسته مرة أخرى.. لم يفكر فيها أبدًا وهو يفعلها، ولا حتى فكر في نفسه. عادةً ما يكون عقله مشغولًا بمهانة يوم سابق، وهموم يوم آت. تنحنح وهو يعترف لنفسه إنه هو شخصيًّا كاد ينسى كيف يستمتع بامرأته.

بنهاية المؤتمر كانت الفكرة اختمرت في رأسه. عندما عاد إليها وجدها نائمة في الظلام. قبلها بشوق ورغبة. اتسعت عيناها وهي تنظر إليه كما لو كانت تتأكد من شخصيته.. همس:

ـ فيه عشا؟

هزت كتفيها وربتت كتفيه دون أن تنطق.. أردف بسعادة وهو يناولها العشرة جنيهات المقسومة إلى نصفين:

ـ ولا يهمك.. إلزقي دي وهاتي اللي أنت عاوزاه.

أشعل مصباح الغاز الذي يصدر فحيحًا مزعجًا. خلع جلبابه، فظهر جسده قويًّا مرسومًا من جرّاء مصارعة الأيام.. نظرت إليه في تردد فنظر إليها في ولهٍ لا يناسب ملامحه، أخذ كفيها المشققتين، ووضعهما على صدره. انتفض جسده فزعًا عندما فاجأته بشهقة عالية وهي تحدق خلفه، استدار بحركة سريعة ليرى رءوس أبنائه الأربعة بارزة من فوق دوري السرير المعدني المتهالك. تعالى صوته:

ـ كله ينام يا ولاد الكلب.

ارتدى جلبابه في خجل، مدّ أصابعه ليطفئ المصباح، غرقت الغرفة في ظلام دامس، وصمت مطبق.. قطعه بعد دقائق صوت (خروشة) من جرَّاء احتكاك الجلباب البني بالجلباب الأسود، والكيس البلاستيكي الذي تحته.

حيثيات دفـاع

ـ املأ التانك لو سمحت.

يهز الشاب رأسه موافقًا وهو يفتح الخزان.. يضع المضخة بعنف، كما لو كان يغرسها في جسد السيارة بحركة معتادة. تنقلب الأرقام على العدادات بسرعة شديدة.. عداد النقود يتحرك أسرع كثيرًا من عداد اللترات.. كل متر تقطعه هذه السيارة يحتاج جنيهات، لن تتحرك مترًا واحدًا بدون وقود.. مهما غسلناها وشحّمناها ولمّعنا زجاجها.

تأخذني صورتها في مرآة السيارة. نائمة من التعب، ابنها الأكبر واقف خلفي، ممسك بظهر مقعدي ورأسه بارزة عن يميني. أنهَره ليجلس، فيعود بعد دقيقتين ليظهر مرة أخرى. ابنتها تغني لعروستها بغير انقطاع. والرضيع في مقعده، يتعالى بكاؤه فَينَة ويخفت أخرى. ترضعه أو تهدهده إلى أن يصمت.. سيرك صغير مزعج.. لكنَّ إزعاجه متعة لا مثيل لها.

ـ الحب يصنع المعجزات!!

كانت هذه هي كل حيثيات الدفاع في قضيتهما، هو يخبرني أنه يحبها، وهي تخبرني أنها تحبه.رأيته شابًّا وسيمًا لطيفًا عاشقًا. زاملها في الجامعة، كل ما يملكه هو تمنيات وحب. لم أكن أريد منه مالًا.. كنت أبحث عن سطور نجاح خفية، علمتني سنون العمر كيف أقرؤها على الوجوه، عن نبرة عزم تسمعها الدنيا فتلين له ولو قليلًا.. لم أجد شيئًا منهما. للحظات كدت أضعف أمام مشاعرهما الجياشة. شعرت أني سأراهن على فرس لم أره حتى وهو يمشي من قبل. لم أقبل المغامرة.. فقيمة الرهان.. حياة ابنتي.

أستدير لأتفرس ملامحها، أبحث عن علامات سعادة عليه فلا أجدها.. ولا ملامح شقاء كذلك. نفس الانطباع الذي آخذه من صفحة السماء الصافية الخالية من السحاب الأبيض الذي أحبه، ومن الغيوم الداكنة التي تقبضني.. حتى فمها أراه كخط مستقيم مرسوم بالعرض، لم تنحن نهايتيه لأعلى ولا لأسفل، لكنني أعرف أنها تعيش حياة مُريحة، رغم انشغال زوجها الدائم.. تملك حقوق اختيار كل ما يخصها هي وأولادها.. الملابس، السيارة، المدارس، الخادمة. طالما سألت نفسي إن كنت قد جُرت على حقها في سعادة تمنيتها لها... على الأقل اخترت لها رحلة آمنة.. بدلًا من طريق اختارته هي بلا أي ضمانات.. ولا حتى ضمان الوصول.

تمد ابنتها يدها لتجذب شعرها وهي نائمة، تميل برأسها تجاه جذبتها.. وهي تتأوه وتزيد من إغماض عينيها:

ـ آآآي.

تخرج من الصغيرة ضحكة طفولية قصيرة.. شلال من السعادة المتدفقة للحظات، تعيد الكرَّة مرة أخرى وأخرى. تسمع الآهة القصيرة، فتتعالى ضحكاتها تُدغدغ القلوب. ترتسم على وجه ابنتي ابتسامة سعادة أراها حقيقية.. تتسع مع كل ضحكة من الصغيرة دون أن تفتح عينيها.. آهة صغيرة ثم ابتسامة!! ربما كان هذا بالتحديد ما فعلته أنا أيضًا معها.

ـ ستة وتسعين جنيه يا فندم.

أمد يدي بمائة جنيه:

ـ خلاص يا بني.. خُد الباقي.

تلتقي عيوننا لأول مرة.. عرفته في اللحظة التي رأيته فيها يضع المضخة. لو رأيته قبلها لغادرت. يكتسي وجهه بحمرة لا أدري ما إذا كانت غضبًا أم خجلًا أم كلاهما.. يمد يده في عصبية ملقيًا بالجنيهات الأربعة في وجهي.. أنطلق بالسيارة مضطربًا دون أن أمد يدي لألتقطها.

يسألني حفيدي في حيرة:

ـ جدُّو، هو أنت زعلته في حاجة؟

أهز رأسي في بطء:

ـ أيوه يا حبيبي.. بس كان غصب عني.

العبور العظيم

عاجزة، تتلفت يمينًا ويسارًا، بحثًا عن المساعدة، بلا جدوى.

عندما طلب منها سائق (الميكروباص) النزول لأنها الراكبة الوحيدة الباقية.. شرح لها أن المسافة ما زالت طويلة. أردف بابتسامة صفراء:

ـ (حرام عليكي تودايني مشوار مش جايب همه).

لم ينتظر الإجابة، بل دار من أول فتحات الطريق. ردَّ لها ما دفعته كاملًا. أنزلها من العربة شارحًا:

ـ عدِّي الناحية التانية. شاوري لأي ميكروباص.. قوليله مستشفى التأمين الصحي.

وانطلق مسرعًا دون أن يسمع منها أي رد.

لم تغضب منه. فهي لم تجد ما قاله صعبًا، نظرت إلى الأجرة التي ردها إليها وهمست:

ـ ربنا يباركلك.

تستعد لعبور الطريق، أخافتها السيارات التي تتدفق كالسيل بغير توقف.. نهر الطريق الواسع يصعب من مهمتها ولا شك.

تنزل من فوق الرصيف مترقبة. يطول الانتظار. تلمح مسافة لا بأس بها بين السيارات القادمة عن بعد. تتقدم على مهل، متوقعة أن تشفع لها سنوات عمرها التي تجاوزت الستين في إبطاء السيارات القادمة. تتعجب في خوف. السيارات لا تبطئ. أصوات آلات التنبيه التي انطلقت في حدة زادت من فزعها. ارتدت في سرعة لم تعرفها منذ سنوات عديدة. لفحها الهواء من جراء مرور إحدى السيارات على بعد سنتيمترات من جسدها فأطلقت صرخة مكتومة، تزامنت مع السّباب الذي لم تسمعه من السائق.

وقفت مُتهدجة الأنفاس. آلام صدرها تتزايد. تتمنى لو أن معها أحد ابنيها ليساعدها، تتنهد وهي تدعو لهما بسعة الرزق. لم تغضب منهما أبدًا. هِجْرَتهما جاءت بعد أن وجدا كل الطرق مسدودة أمامهما. بدأها الأول، بعد عام واحد

أرسل في طلب أخيه. لم تستطع هي ولا زوجها الاعتراض، كما أنهما وعداهما بزيارات دائمة، لم تتحقق طيلة خمس سنوات. حتى بعد وفاة أبيهما منذ ثلاثة أشهر. تغرورق عيناها بالدموع، من ذكرى الثلاثة. يزيد من وهنها شعورها بالعجز بعد ذلك الرجل الذي لم يهنها يومًا طيلة حياته، والذي كان يرفض بإصرار أن يأخذها إلى أي مكان في المواصلات العامة، بل كان يطلب لها سيارة الأجرة من الباب إلى الباب. حاولت أن تستمر في ذلك، إلا أن قلة مبلغ المعاش وكثرة (مشاوير) ما بعد موته كان لهما رأي آخر.

تتلفت حولها مرة أخرى. تنبهر لرؤية الهرم الضخم القابع خلفها، تبحث عن الآخرين. فهي لا تعرف النصب التذكاري، ولا تعرف أهرامًا غير التي زارتها مع أبيها مرتين في سنوات طفولتها. استبشرت برؤية الجنود الممسكين بأسلحتهم يتحركون في انتظام بخطوة المراسم العسكرية التي رأت فيها شيئًا من العظمة.

اقتربت منهم وهي تنادي: (يا ولاد.. عاوزة أعدّي الشارع).

لا يلتفتون ولا يجيبونها. ترددت خطوة أحدهم وهو يختلس النظر إليها من طرف عينه، الصيحة الصادرة من الصول الواقف إلى جوارهم جعلته يتناساها سريعًا. اقتربت أكثر.. لا فائدة.

اندهشت من السائحين الذين كانوا يلتقطون صور المكان والجنود، عندما أداروا كاميرات التصوير تجاهها، خجلت وعادت إلى مكانها على حافة الرصيف وهي تُحوْقِل في غضب.

تنظر إلى الطريق الذي لا يهدأ مرة أخرى، حاولت أن تطلب من أختها إرسال أحد أبنائها معها. لم تجرؤ على ذلك بعدما اشتكت لها أنها لا تراهم. وأنهم يعتذرون لها كل فترة في مكالمة هاتفية بأن.. «أكل العيش مر».

تتلفت يمينًا ويسارًا، تلمح واحدًا من المشاة النادرين في تلك المنطقة، خطواته المهرولة، حقيبته المنتفخة، والهَمُّ البادي عليه يمنعونها من النداء عليه. تقترب منها سيارة صغيرة، تقف أمامها، وينزل منها شابٌّ ممشوق القوام متسائلًا. تشير بإصبع مرتعشة إلى الجهة الأخرى:

ـ عاوزة أعدي.

يمسك يدها المعروقة في كفه الدافئ، يفرد قامته أكثر، تبتسم في اطمئنان.. يُقطِّب حاجبيه منتظرًا الفرصة التي لا تأتي، بمرور الدقائق تبدأ طمأنينتها في

التلاشي. تقترب منهما قاطرة المرور. يخرج الضابط رأسه من النافذة مشيرًا إلى السيارة الرابضة على يمين الطريق. يحاول أن يشرح له، يتجاهله في غضب. يعتذر لها في حرج وهو يشير إلى ساعته، يغادر فتشيعه بنظرة استسلام يائسة.

تفكر في العودة من حيث أتت. ذكرى دواء الشهر الماضي الذي التهم المعاش تثنيها عن الفكرة، أخبرها الصيدلي مشفقًا عندما رأى تذكرة العلاج الممتلئة من الوجهين أن الحل في مستشفى التأمين الصحي... ظنت الأمر بسيطًا.

تجلس على حافة الرصيف، آلام صدرها أصبحت لا تطاق. السيارات تتوالى أمام عينيها. تغطي وجهها بكفيها، فتتراءى أمامها صورة زوجها وولديها، البيت الخاوي الذي ينتظرها. ترفع كفيها عن عينيها اللتين امتلأتا بالدموع، تهب واقفة، وتشد قامتها قدر ما تتحمل. تقتحم الطريق بخطوات مرتعشة، علها تصل إلى ما تتمناه.

خيــوط

ـ لا تتكلم، لا تتحرك، حاول ألا تتنفس.. فهذا أسلم لك ولنا جميعًا.

جاءت كلمات أبي هامسة، حاولت أن أستدير نحوه، الوهن يملؤني. أحاول أن أشير إليه.

ـ إياك أن تفعل.

أتسمر مكاني. يجيئني صوته بتنهيدة ارتياح:

ـ كاد يراك. لا تحاول أن تفعلها مرة أخرى.

صوت أبي بثَّ في قلبي خوفًا لا أدرك ما وراءه. أسكن للحظات. أحاول أن أنفّذ أوامره. شبابي الجامح وعقلي الأكثر جموحًا، يدفعاني لمقاومة ضعفي، أحاول هزَّ رأسي يمينًا ويسارًا. أندهش عندما أكتشف أنني مقيد. أقاوم، أتجاهل تحذيرات أبي وأخي وأمي، التي جاءتني من مختلف الاتجاهات. قيود لا أدري كنهها تحيط برأسي. أحاول تحريك يديَّ فأجدها مقيدة أيضًا.. أحرك رأسي في عنف، يبدأ في التحرر رويدًا رويدًا.

ـ عليك اللعنة. لقد رآك. قد ندفع جميعًا ثمن حماقاتك.

أسكن خائفًا مرة أخرى. أشعر بظل يقترب مني. أكتم أنفاسي. يقترب أكثر. أغمض عيني في خوف. أشعر به يبتعد. أكتم تنهيدة ارتياح كادت تفلت مني.

أسكن لدقائق تمر ثقيلة، صبري ينفد، أحرك رأسي في بطء شديد. أندهش، وأنا أرى أبي وأمي مقيدين إلى جواري. إخوتي في الجانب الآخر، القيود تلفهم جميعًا كأنهم مومياوات. ألقي نظرة على جسدي، مداها مرتبط بمدى حرية رأسي. الخيوط تلفني أنا أيضًا. أراها واهية بالرغم من عددها اللانهائي.

أحرك رأسي إلى أعلى وأسفل. تتسع عيناي دهشة، وأنا أرى ما نحن فيه. شبكة ضخمة من خيوط العنكبوت تمتد من السقف إلى الأرض. أجسادنا مثبتة فيها بإحكام. أندهش!! أحاول أن أتذكر الليلة السابقة. ذاكرتي خالية منها تمامًا. أذكر أنني رأيت خيوطه في سقف بيتنا رغم أني لم ألمحه. لم أهتم كثيرًا. لا بد أنه ضئيل، لا يختلف كثيرًا عن أبناء فصيلته التي اعتدنا رؤيتها، في بيتٍ سيدته

لا تقوى على متابعة نظافته، وكل رجاله مشغولون بالقتال من أجل لقمة عيشهم. يعودون منهكين في الليل. لا يقوون حتى على مد أيديهم إلى أعلى بالمكنسة التي أصابها صلع يشبه ما أصاب رءوسهم من الجوع والشقاء.

ـ خيوط عنكبوت على الحائط يا أمي.

قلتها لها قبل أن أغادر البيت إلى عملي.

جاءني صوتها منهكًا:

ـ لن أبلغها.

في الحقيقة لم أحاول أنا أو أيٌّ من إخوتي إزالة خيوطه؛ فنحن في عجلة من أمرنا كل صباح. خائرو القوى كل مساء. بمرور الليالي لاحظت أن الخيوط تتزايد. تقززت من منظر الذباب الذي يئز في مصيدته. قررت أن أزيلها في غدٍ لم يأت أبدًا.

لا أدري كم لبثنا إلى أن وقعنا نحن أيضًا في براثنه. هل بث سمومه في طعامنا، فنمنا بما يكفي ليتصيدنا؟ هل كان يتغذى بطعامنا إلى أن تضخَّم بما يكفي؟ لا يهمني ما حدث. المهم ما نحن فيه.

ـ سأحرر نفسي.. أقولها بكل عزم.

يأتيني صوت أبي يائسًا:

ـ لن تستطيع.

ـ خيوطه واهية.

ـ سيأكلك ويأكلنا.

ـ العناكب لا تأكل البشر.

ـ وهل تقيدهم؟

ـ غفلة!!!

ـ عجز!!!

ـ لن أترك نفسي لعنكبوت ضعيف.

ـ سيقانه طويلة، سيمسك بك قبل أن تتحرر.

ـ إنها أرفع من أصابع يدي.

ـ تعقل يا ولدي. لا تلق بنا إلى التهلكة. انتظر قضاء الله.

أتنهد حائرًا، أُجيل عيني في أرضية الغرفة، أبحث عن أيّ سلاح يزيد من شجاعتي. مكنسة، عصا، أو حتى فردة حذاء. أبدأ في الحركة ببطء. خيوطه واهية كما ظننت، لكنها محكمة. تتزايد حركتي قوة، وأنا أحرر جسدي في عنف. الشبكة بأكملها تهتز. أشعر به يقترب مني في سرعة. أزيد من سرعتي أنا أيضًا. ألقي بصري على أبي وإخوتي فأجدهم قد أغلقوا عيونهم في صمت وسكون، منتظرين.. قضاء الله.

دفتر الحسابات

ـ إنه قراري النهائي.

قالتها وانخرطت في البكاء.

ينظر إلى أخيه وأبيها اللذين جلسا أمامه في صمت. تابعت:

ـ نسي كل ما كان، أنا التي رضيت بزواجه عندما كان لا يملك شيئًا!!

قاطعها أخوه في تحفظ:

ـ كان مهندسًا يملك مستقبله.

تضحك ساخرة في عصبية:

ـ أنا صنعت مستقبله.. تزوجنا في شقة اشتراها وأثثها والدي، سيارتي، النادي، مدارس الأولاد، حتى الشركة التي بدأ فيها.. أنا بدايته.

ينظر إليها صامتًا. ورقة زواجه التي وجدتها على مكتبه بقيت هناك أيامًا عديدة.. رآها مرات ومرات. شعور غامض في داخله جعله يتركها مكانها.

حكايته مع الأخرى بدأت عندما رأى في عينيها انبهارًا من أول نظرة. يومها وقف يتأمل نفسه في مرآة المصعد سعيدًا.. عندما توقف به، أدار رأسه يمينًا ويسارًا باحثًا في حيرة، إذا كان صعد به أم نزل.

كل لقاء بعدها كان يأخذه بعيدًا. تزداد نظراتها اختراقًا لقلبه. تقترب من الخمسين، أصغر منه قليلًا، عائلتها تفوق عائلة زوجته عراقة. مع ذلك، فهي تثني على كل ما فيه.. صوته، شكله، صفاته، نجاحه. ضحك جذلًا كطفل صغير، وهي تخبره أنها لو قُدِّرَ لها أن تصنع لنفسها رجلًا.. لاستكثرت أن تجمع فيه كل هذه المزايا العبقرية.

يهز رأسه في إحباط، وهو يتذكر أول قفزة في حياته. اختاره رئيس مجلس الإدارة ليصبح مشرفًا على القسم الذي يعمل فيه. عاد لها سعيدًا، احتضنها في امتنان وفخر، وهو يحكي لها.. أجابته بابتسامة واسعة، أمسكت بسماعة الهاتف:

ـ اتصل بأبي لتشكره.

تحولت السعادة على وجهه إلى دهشة شديدة!! عاجلته:

ـ أليس هو من توسَّط لتعيينك في الشركة.

حادثه بصوت مختنق، يشعر أنه سلبه حقه. لم يُهوِّن عليه صوت الأب الدافئ، وهو يخبره أن هذا مجهوده، فهو لا يعرف حتى اسم رئيس الشركة الجديد.

كان يمنِّي نفسه أن تغيرها السنون، العشاء الذي دعاها إليه احتفالًا بتأسيس شركته الخاصة بعد أعوام طويلة، لم يختلف كثيرًا.. تحول إلى نقاش حاد عما كان سيصل إليه لو لم يتزوجها، انتهى بليلة كئيبة قضاها في غرفة مكتبه، نائمًا على الأريكة الجلدية.

تشعره أن ضيق يده عند زواجها ندبة لن تختفي. حبه لها جعله يتزوجها بمجرد تخرجه.. قبل أن يمنح نفسه فرصة ليرى ما سيصل إليه وحيدًا. حاول كثيرًا أن يغير نظرتها إلى أن يَئس، فتحول إلى زوج آلي.. يفعل كل ما يقتضيه مكانه بلا مشاعر.

اعتاد وجود الثانية في حياته، تمنح قلبه سلامًا افتقده زمنًا طويلًا، حاجته إليها تفوق رغبته كثيرًا، استجمع شجاعته يومًا، قالها وهو يشيح بوجهه إلى الجهة الأخرى:

ـ هل تقبلين أن تكوني زوجة ثانية؟

ـ في المعتاد لا.. مع رجل مثلك؟ نعم بكل تأكيد.

عرف روحًا جديدة للزواج.. أشياء عديدة كان يفعلها بصورة روتينية، هناك من النساء من يقدرها ويشكره عليها، ولو على سبيل المجاملة. حتى اللحظات الخاصة بينهما كان يخرج منها شاعرًا من كلامها ونظراتها، أنه مختلف. يرقد بين ذراعيها سعيدًا.. متذكرًا زوجته التي كانت تدير ظهرها إليه وتضع الغطاء على رأسها، كما لو كانت أنهت عملًا ثقيلًا لا بد منه.

ينتبه على صوت أبيها:

ـ تتكلمان عن نفسيكما فقط! هل نسيتما أولادكما؟

يرتسم على وجهه الحرج، نسيهما في خضم الأحداث، أبعدتهما عنه، تسفه من كلامه أمامهما دائمًا. فخرهما به، وثناؤهما عليه، تتلوهما المحاضرة الطويلة المعتادة عن أفضالها هي وأبيها عليه. يهز الولد كتفيه ساخرًا منهما. دفاع ابنته الدائم عنه، يؤلمه أكثر مما يسعده. ينهرها فتنظر إليه مندهشة!! فتخرج من زوجته ضحكة مقيتة:

ـ ألم أقل لكِ؟ إنهم لا يحفظون الجميل.

يقترب منه أخوه هامسًا:

ـ أنت ظلمت نفسك، فلا تظلم أولادك.

ينظر إليه منزعجًا. يتذكر ولادتهما، وهو يجلس إلى جوارها يمسح رأسها في حب.. لحظات اختيار الأسماء، سهرهما معًا في أيام مرض الصغار، والذي كان ينسحب منه سريعًا، تاركًا لها الجزء الأثقل من الليل. تجتاحه سلسلة طويلة من الذكريات. يعرف أنها تحبه، أخلصت له.. خطؤها كان في ظنها أنه من ممتلكاتها. يتذكر لحظات سعادة عديدة جمعت الأسرة من قبل. يبتلع ريقه، ويهزُّ رأسه معترفًا أن ما بينهما عشرة طويلة لا تساويها شهور مع الأخرى، وأن فلذتي كبده أغلى من كل شيء.. يتنهد مستسلمًا:

ـ سأطلقها.. من أجلك ومن أجل الأولاد.

تصرُّ على الطلاق في تردد.. يأتيها إلحاح الأب ليقنعها بعد لأي، تعاتبه في رقة، فيعتذر في تحفظ وعتاب مضاد.

تدَخُّل ابنته الشابة الجميلة، تُثبِّت في قلبه القرار الذي اتخذه من أجلهما.

تنظر إليه هامسة برقة:

ـ أنت يا أبي؟

يأتيه صوت زوجته قبيحًا:

ـ هذا الذي كنت تدافعين عنه، عندما كنت أقول لك إن ما فعلته من أجله خسارة فيه.

تخفض ابنته رأسها في خجل.

ـ

يقوم من مكانه متثاقلًا، يدخل إلى غرفته لدقائق، ينادي زوجته، تدخل بعد نظرة طويلة من الأب.. يعطيها مجموعة من الأوراق:

ـ شيك بأضعاف المؤَخَّر.. عقد الشقة، والسيارة، وشقة المصيف، يفوق هذا ما أخذناه من أبيك عند الزواج.

تضحك ساخرة بعصبية:

ـ وحياتي التي أضعتها معك؟

ينظر إليها في تأنٍ. يغمض عينيه على صور حياته معها. يكتب لها شيكًا آخر، يلقيه في وجهها بمرارة.. ويغادر إلى الأبد.

لم يصبه الدور

ـ لا بد أن نلقنهم اليوم درسًا أشد قسوة.

كانت كلماته تتردد في رءوسهم جميعًا. في نفس اللحظة التي أشار لهم فيها ببدء الهجوم. انطلقوا يزحفون بسرعة مدهشة. بنادقهم في أيديهم. على وجوههم نور يغلب آثار طين الأرض الذي تزينوا به قبل دقائق.

إشارات من يده توقفهم، تحدد اتجاه حركة كل منهم، يهزون رءوسهم في عزمٍ. تلتقي عيون فيها من الحب ما يفوق الخوف. ترتسم ابتسامات يعجز كل من سواهم عن فك طلاسمها.

يعلو صوته بكلمة السر. يهجمون في آن واحد من اتجاهات مختلفة. يصوبون بنادقهم تجاه الهدف، يتحرك «خالد» جاريًا بسرعة، يلقي بعضًا من قنابله التي أخرجها من حزامه، تنطلق منه آهة حادة، يمسك بصدره، ويسقط على الأرض مشيرًا إلى «صادق». يجري نحوه محاولًا أن يجره. يسقط إلى جواره ساكنًا بلا حراك.

تعلو أصوات القذائف والصواريخ من الجانب الآخر من المدينة. يرتفع صوت أم «صادق» وهي تنادي عليه صائحة بأن يعود كل من أصحابه إلى بيته، فقد بدأ قصف جديد.

ينزل إليها ، تحتضنه في حب، يحكي لها عن معركة اليوم في سيل من الكلمات:

ـ لعبنا مقاومة.. هجمنا، أصيب «خالد»، حاولت إنقاذه لكني استشهدت.

تبتسم في حنان، وهي تغسل وجهه ويديه. صوت القصف قريب. ينقطع التيار الكهربائي. الظلام لا يخيفه والبرد لا يؤذيه، بينه وبينهما ألفة تغذيها سنوات الاحتلال.

ـ لماذا لم تسمحي لي أن أذهب مع أخي للجهاد؟ قالها وهو يريح رأسه الصغير على صدرها. ذراعاه تحيطان شعرها الذهبي، وعنقها الأبيض الدافئ.

ـ أنت ما زلت في السادسة. هو أكبر منك بعشرة أعوام كاملة.

ـ عندما أكبر، سأذهب مثلما ذهب أبي.. و«إياد».. و«نضال».. و..

ابتسمت في تسليم، أبناؤها يتتابعون في الذهاب بلا عودة. خمسة وعشرون عامًا من الزواج، الحصيلة خمسة شهداء، آخرهم الزوج نفسه. السادس في الطريق. لا تعرف إن كان لا يزال حيًّا أم.. أصابه الدور.

بقي لها «صادق» وأختاه. تنظر إليه، فترتسم على وجهه ابتسامته التي كانت ترى فيها حنانًا يعوضها الله به الغائبين. يمد شفتيه إلى وجنتيها بقبلة دافئة.. يهمس:

ـ غنِّ لي يا أمي.

تغني له بصوت شجيٍّ خافت، النوم يتسلل إلى عينيه.. ينضم إلى حضنها البنتان اللتان استيقظتا على أصوات المدافع والطلقات. ذراعاها تحتضنان الثلاثة. تغني بصوت لا يبدو فيه أثرٌ للدموع التي تنساب من عينيها. يغرق أطفالها في النوم. تضمهم إلى جسدها قدر ما تستطيع؛ علها تمنحهم كل ما فيه من دفء. تمسح على رءوسهم، وهي تردد أدعية السلامة لمن في حضنها ولمن.. غاب.

عيناها لا تغفوان، يطول الليل، تغمضهما محاولة النوم.. لا تستطيع. تتشاغل بتوقع أماكن سقوط كل قذيفة. تهمس لنفسها: قريبة.. هذه بعيدة.. شرقًا.. غربًا.. القصف يزيد.. الآن يقل.. لا بد أنهم اكتفوا.. أنفد الله ذخيرتهم وأعمارهم.. ليلة طويلة ولا شك.

علَّمها زوجها منذ أعوام، أن طول الليل وقصره بعدد القتلى. تتذكره عندما كان يأخذها هي ومن تبقى من أبنائه بين ذراعيه في ليالٍ مثل هذه، يهز رأسه غير مبالٍ وهو يقول لها:

ـ وقتما يكون الموت أقرب من الحياة، يتغير حساب الوقت. كم تساوي ليلة من القصف كل ثانية منها تنهي بضعة أعمار!

تختلط على وجنتيها دموع الخوف بدموع الذكرى.

التقى الصغار في الصباح مرة أخرى. تعانقوا في شوق وعزاء. فقد افتقدوا «صادقًا»، وافتقدوا سطح بيته الذي كانوا يلعبون عليه، بعد أن سوته إحدى القذائف بالأرض، بكل ما فيه ومن فيه. تناوبوا البحث في أنحاء الحي عن وردة واحدة ليلقوها على أطلاله فلم يجدوا.

تسلم «خالد» قيادة المجموعة. وقف من فوق سطح بيته ينظر إلى الفراغ الذي خلفه البيت الآخر. اغرورقت عيناه بدموع حاول أن يخفيها عن الباقين، كما علمه صديقه. ضمَّ بندقيته الخشبية إلى صدره أحكم يده الأخرى على حجر مربوط في حزامه.. أفلتت منه آهة حزينة وهو يشير لأصدقائه إيذانًا.. ببدء دور جديد.

علامـــات!!

ـ اخلعيه. أو اطلبي من سيد أن يخلعه لك... لا أريد أن أراك جالسة هكذا مرة أخرى.

قالتها لها فابتسمت في حرج وهي تحاول أن تعتدل في جلستها. لم تَعُد تشكو منه كما كانت تفعل فيما مضى. ولم يَعُد أحد من المرضى الذين يرتادون العيادة كل يوم يهتم بسؤالها. كلهم اعتادوا عليها وعلى ما هي فيه.. حتى هي.

اليوم فقط حدثتها هذه المريضة الجديدة. سألتها حكت لها فأجابتها بصوت فيه من اللوم ما يفوق الشفقة كثيرًا... اخلعيه، تهز رأسها في حيرة:

ـ اخلعيه! بهذه البساطة..

تعود لأول يوم تسلمت فيه العمل. كانت سعادتها بلا مدى، راتب يفوق احتياجاتها البسيطة، سكرتيرة لأشهر طبيب نساء في المنطقة، عيادة مكيفة، ومكتب أنيق يبدو أمامها أوسع من الأريكة التي تنام عليها مضمومة على شكل علامة استفهام، كما لو كانت تعقب بجسدها على السؤال الذي يدور في رأسها كل ليلة.. متى يتغير الحال؟

يومها ألقت جسدها على الكرسي الجلدي الدوار بثقة.. آآآآي. خرجت صرختها مكتومة وهي تمسك بمقعدتها التي انغرس فيها المسمار الرفيع المدفون في الكرسي، تاركًا فيها نقطة حمراء صغيرة رأتها في مرآتها المكسورة، بعد عودتها إلى البيت في المساء حاملة فرحتها الطاغية، رغم أن قدميها كانتا تؤلمانها، لأنها لم تجلس على المقعد، ولا على غيره طيلة اليوم.

في اليوم التالي أخبرت الطبيب بحكاية المسمار. قطب حاجبيه في غضب.

ـ من أولها؟

لعنت لسانها الذي نطق في سرها. وخرجت متمنية على الله أن ينسيه ما حدث. عندما غلبتها آلام قدميها وظهرها قررت أن تجلس على الكرسي لبعض الوقت. جلست مائلة على جنب واحد لتتجنب أن تضغط بجسدها على جرح الأمس، أو أن تضيف ثقبًا جديدًا في جلدها إلى جوار الآخر. وقضت اليوم جالسة على ناحية واحدة!! كانت تشعر أنها تبدو مضحكة. تحاول أن تعتدل من

آن لآخر فيهددها سن المسمار بلمسة تعيدها إلى ما كانت عليه. في نهاية اليوم جلست على الأرض أمام كرسيها تبحث عن المسمار. تشعر به دون أن تراه، كامن في قاعدته، يغطيه كل هذا الجلد الأنيق. الوصول إليه بغير أن تمزق جلده يكاد يكون مستحيلًا. ليلتها.. نامت مثل علامة الاستفهام على جانبها الأيسر فقط. فقد كان ظهرها يؤلمها من الميل طيلة اليوم فلم تستطع أن تتقلب. في الصباح أخذت وسادتها من البيت لتجلس عليها، كادت تبكي وهي تجدها أكبر من قطر المقعد، فقد غطت زراعي الكرسي. شعرت بالبلاهة وهي ترى نفسها أعلى من المكتب كثيرًا، فأبعدتها وجلست كالمعتاد.

عندما حكت لأخيها الأصغر في المساء ابتسم ببساطة. غاب قليلًا وعاد بقرص خشبي كان قاعدة لكرسي من كراسي المقهى. قفزت تُقبله عندما وجدت أبعاده مناسبة تمامًا. ودعت له في العيادة، وهي تجد قرصه الخشبي يحمي مقعدتها من نهشات المسمار القاسية تمامًا. ارتاحت في جلستها طوال ذلك اليوم. لكن عيني الطبيب وقعت على درعها الواقي عندما كان يحاسبها في نهاية اليوم، مطّ شفتيه ممتعضًا.

ـ ما هذه القذارة؟

نظرت إلى ما يشير إليه في صمت. رأت فيما يقوله حق. الدائرة الخشبية مكسوّة بخليط مقزز من الدخان والتراب. آثار حروق صغيرة متعددة خلفتها قطع الفحم التي طالما كوَته. وأطراف مكسورة تخرِج أشواكًا دخلت إحداها في أصابعها عندما كانت تضعها بسعادة على كرسيها الأنيق. لم تعقب على قوله، أخذتها في صمت وألقت بها في القمامة.

قررت بعدها أن تأخذ مقاس كرسيها وتذهب للمنجد ليفصّل لها قاعدة جلدية نفس اللون والشكل، وستتخذ هذه الخطوة مع مرتب الشهر الجديد. فلتجلس على جانب واحد لبضعة أيام، ولتنم على جانب واحد لبضعة أيام... بعد ثمانية أشهر، ابتسمت لنفسها ساخرة وهي تتذكر أمها التي ظلت تأكل على ناحية واحدة من أسنانها بعدما كسر عندها ضرسان في ناحية واحدة. وكانت تقول إنها يكفيها ناحية واحدة للمضغ.

وبعد عام آخر، تذكرت أن أمها قضت ثلاثة أعوام من عمرها لا تأكل أي طعام صلب. بعد أن تكسرت أضراس الناحية الأخرى... بحجة أنها أكلت ما يكفيها في شبابها. هي أيضًا الآن أمضت مدة لم تَعُد تحصيها على هذا الكرسي. أصبح كتفها الأيسر يعلو عن كتفها الأيمن قليلًا. ومشيتها تشعرك بالعرج رغم أن ساقيها بخير.

ـ تخلعينه أم تتركين سيد يخلعه؟

كررتها المريضة مشيرة إلى سائقها وهي تدس في يدها الجنيهات العشرة أثناء مغادرتها للعيادة. أجابتها في هدوء:

ـ لا داعي لكيلا يتمزق جلده..

نظرت إليها المرأة في دهشة.. في اليوم التالي جاء سيد إلى العيادة يحمل كرسيًّا شبيهًا لكرسيها القديم الذي أخذه معه. بعد شهرين عادت المريضة الطيبة إلى العيادة. اندهشت وهي تراها تجلس على ناحية واحدة من الكرسي الجديد، وتمشي مائلة بكتفها إلى ناحية واحدة. ربما كانت لتدهش أكثر إذا رأتها وهي نائمة. لم تَعُد تستطيع النوم على جنبها من الألم، ومن تغير شكل عمودها الفقري. أصبحت تنام على ظهرها المعوج كعلامة تعجب مائلة، كما لو كانت تعقب بجسدها على ما يدور في رأسها كل ليلة... أن ظهرها يؤلمها كلما جلست معتدلة على الكرسي الجديد..!!

الحمار حــرن

حـا.. حـا.. حـاضر.

يهمس بها «راضي» في سيارته، وهو يتذكر أوامر مديره بالأمس. يقولها متقطعة كما اعتاد، فهو يعاني من «الثأثأة» في الكلام. يذكر جيدًا أول يوم نطقها بهذه الطريقة. تلميذ في المدرسة الابتدائية عمره عشر سنوات، ناظر المدرسة الأستاذ «شديد» طلب مائة جنيه تبرعًا إجباريًّا من الجميع.

عندما تأخر «راضي» في إحضار النقود استدعاه المدير في طابور الصباح.. صاح بصوته الجهوري المخيف:

ـ لماذا تخالف نظام المدرسة؟ ضربه على مَقْعدتِه بعصاه الطويلة، فتعالت ضحكات من طابور التلاميذ الواقف في الفناء، ومن طابور المدرسين الواقف حوله.

أضاف لسعة أخرى وهو يقول:

ـ عد إلى منزلك الآن، ولا تأت غدًا بدون وليّ أمرك. سامع؟

هزَّ رأسه موافقًا بين دموعه وشهقاته، فتعالى صراخ الرجل أكثر:

ـ ماذا تقول؟

ـ حـا.. حـا.. حاضر.

عاد إلى بيته باكيًا. اختبأ في حضن أمه من صوت الأستاذ «شديد»، ومن إهانته أمام الجميع:

ـ لا تحزن يا ولدي. أبوك لن يسكت.

سمع الأب الحكاية، فألقى قميصه المتآكل على الأرض في إحباط:

ـ غلطتي يا أم «راضي».. جلبت لولدي الإهانة.

في اليوم التالي كان يقف مع ولده أمام الناظر، الذي كان يجلس مدخنًا سيجارته باستهتار، نجح بعد حوار تناساه «راضي» من زمن، في أن يقنعه بإمهاله إلى أول الشهر الجديد، وعندما تركهم الرجل جاريًا لمقابلة مفتش الوزارة. اكتشف أن قامته تقل عن قامة أبيه قليلًا، مع أنه كان منذ قليل يراه أطول من أبيه، حتى وهو جالس.

من يومها يتردد فمه قليلًا في إخراج أي كلمة.. ويتردد طويلًا في كلمته المعتادة.

يقلقه ازدحام الطريق في ذلك الوقت المبكر، ينظر إلى ساعته عدة مرات في ثوان معدودة، يكاد قلبه يتوقف مع الطريق الذي توقف تمامًا. يضع رأسه بين كفيه، فهو يخشى أن يتأخر عن أولاد مديره الذين يوصلهم إلى مدارسهم كل يوم. يحاول أن يمد رأسه خارج السيارة ليرى ما يحدث.. حادث؟! ليفسحوا لنا لنمُر. سيارة معطلة؟ ليحركوها إلى جانب الطريق. قد تكون تشريفة! الصبر جميل.

الوقت يمر ببطء. ينظر حوله في قلق. لا يوجد ضباط. يسمع صوت شجار على بُعد. ليست تشريفة إذًا. ينزل من سيارته، يمشي بضعة أمتار. يبحث عمَّا يعترض الطريق. إحدى عربات (الكارو) يجرُّها حمار، تقف بعرض الطريق. على ظهر العربة رجل ضخم يمسك في يده خشبة طويلة، مُثبت في آخرها حبل غليظ قذر، يستخدمها كسوط يلهب به ظهر الحمار في عصبية، وهو يصيح بصوت جهوري مخيف:

ـ حـا حـا حـا. امش يا حمار يا ابن الحمار..

اقترب منه «راضي» بحذر.. متسائلًا في تردد:

ـ ما.. ما الذي حدث؟

ـ الحمار حرن يا أستاذ.

ـ حـ .. حـ .. حرن؟؟

جاءت نظرته مليئة بالغضب:

ـ نعم. حرن. أضرب عن العمل وعن المشي. وقف في مكانه. ثم انهمك في ضربه بالسوط في عنف شديد.

لم تضايقه فرقعة السوط. فهو يراها عقابًا مناسبًا لحمار يعصي صاحبه.

ـ لا.. لا.. لا بد أن تفسح لنا طريقًا. سـ .. سـ .. سنتأخر عن مصالحنا.

ـ أتكلمني أنا؟ كلم الحمار.

يعلم أنه لا فائدة من الحوار مع الحمير. يحاول أن يدفع العربة من الخلف. لا العربة تتزحزح ولا الحمار يتحرك ولا الراكب ينزل عنها ليخف حملها الضخم.. أوراق، أخشاب، معادن، موضوعة في غير نظام كالملفات التي تغطي مكتبه، يدرك حقيقة الأمر:

ـ حمار مهمل ولا شك، فهذه حمولة أيام عديدة.

يدور حوله محاولًا سحبه من اللجام. لا يتحرك. تقع عيناه على خطوط الدماء التي خلّفها السوط. إلى جوارها خطوط متوازية اختلفت أعمارها فتباينت ألوانها.

ـ مسكين سيدك!! لا بد أنك ترهقه كل يوم بحماقاتك فلا يجد حلًّا سوى جلدك. تحرك أيها الغبي، ألا يؤلمك ضربه لك؟ ارحم نفسك. يهز الحمار رأسه يمينًا ويسارًا طاردً الذباب من على وجهه.

يزيد من قوة جذبه. يتعجب من ذلك الحمار العنيد. هزيل تكاد ترى هيكله العظمي بالكامل تحت جلده وبين الجروح والتشققات. ينظر إلى السائق الضخم مرة أخرى. وزنه أضعاف وزن الحمار. لا بد أنه كان يطعمه جيدًا لولا عصيانه الدائم. يهز رأسه في فهم مُغمغِمًا:

ـ من لا يعمل لا يستحق.

تعالت أصوات أبواق السيارات فزاد توتر «راضي». تلفت باحثًا عن الحل الذي جاء على لسان أحد المارة: حلُّوا رباطه من العربة. ينزل الرجل متأففًا، ما إن ينتهي من حل قيده حتى ينطلق الحمار مبتعدًا عن سيده الذي تخلى عن كبريائه، ووضع طرف جلبابه في فمه منطلقًا خلفه. وقف «راضي» متحيرًا ينظر إلى العربة التي ما زالت تسد الطريق.

يرن جرس هاتفه المحمول فيفزع. يضعه على أذنه فيحمر ويشحب وجهه في لحظات. يشمر عن ساعديه ويجر العربة في إصرار إلى أن ينجح في زحزحتها بصعوبة نحو جانب الطريق.

ينطلق بسيارته بعد لحظات.. يمر إلى جوار الحمار الذي أمسكه صاحبه منهالًا عليه بالضرب. يمط شفتيه متعجبًا، من الحمار الذي حرن!!!!

العمر.. رفعة

ـ حِمل ثقيل!!

قلبه يدق بعنف.. عيناه تتجولان بسرعة تكاد تصيبه بِدُوار.. الأضواء أكثر إبهارًا مما عرف. كل شيء من حوله ملون؛ الوجوه، الملابس، الأعلام.. يتنهد من أعماقه.

ـ مصر.. مصر.. مصر.

يجيئه صوت زملائه من المُدرّج المقابل.. يحاول الابتسام فترتجف شفتاه في قلق. يلوِّح لهم بذراعه.. يشعر بها ثقيلة فيزداد قلقه.

يقرأ مدربه قلقه.. يميل على أذنه بصوته الأجَشّ:

ـ ملكش دعوة بحد.. ركِّز.

يغمض عينيه كما علموه.. صورة الملعب، شعار الدورة الأوليمبية التي طالما حلم بالمشاركة فيها لا يغيبان عن ناظريه. يمد كفيه ليضغط على جفنيه ممعنًا في إغلاقهما.

يأخذه السواد، تخفت الأصوات في أذنيه.

ـ أنت مش نافع في حاجة. صوت أبيه، وكلمته التي طالما خرقت أذنيه.. تتلوها صفعة أو ركلة.. يجري بعدها مبتعدًا عن شرّه.. يختفي في حضن أمه.. ليقسم الأب أن يخرجه من المدرسة ليعمل مع عم «رضا» الميكانيكي.

ترتسم على شفتيه ابتسامة مرتعشة.. نفع في شيء ما!! رغم أن رأي الأسطى تطابق مع رأي أبيه بعد عدة أيام.. إلا أنه نجح، وإن جاء نجاحه بصدفة قاسية.

ـ شيل عِدِل يا بن الـ ....

كان يحمل جزءًا ثقيلًا من مُحرك سيارة. لطمه الرجل على مؤخرة رأسه، فارتطم وجهه بما كان يحمل.. نظر إليه باكيًا والدم ينساب من أنفه.. رفع حمله إلى أعلى وهو يصيح:

ـ ما تشتمش أمي.. شيله أنت.

ألقاه عليه فانطلقت منه صيحة ألم أثلجت صدره، قبل أن يطلق ساقيه للريح.

توابع الأمر كان أسخن (علقة) أخذها من أبيه بعد أن عرف أن ولده كسر ساق معلمه، تلتها طرقات على باب الغرفة الرابضة في البدروم العطن. فزع «بسيوني» عندما وجد المعلم وساقه ملفوفة في الجبس، يجاوره زبون الأمس الذي أخبره أنه حاول أن يرفع الكتلة التي ألقاها هو على سيده.

ـ تلعب رفع أثقال؟!

وافق هو على الفور، ووافق أبوه على مضض وهو يهمس لنفسه بأنه «كده كده مش نافع».

ـ أحلام المصريين بين ذراعي «بسيوني».

طالما سخر من مثل هذه الكلمات.. حتى عندما كان يسمعها أثناء بطولاته الأفريقية والعربية، لكن عندما سمعها من رئيس الاتحاد صباح اليوم، ارتجف قلبه خاصةً أنها جاءت بعد دقائق من مكالمة الوزير، وتحيات نقلها إليه من قصر الرئاسة.. سأله في دهشة:

ـ الريس عارفني؟

ـ مصر كلها عارفاك.

يفتح عينيه على هزَّة من مدربه، دوره اقترب، يقفز في مكانه، يضرب وجهه ببعض الماء، يمشي على مهل في اتجاه الثقل الذي يبدو له أضخم من المعتاد، يهمس مدربه في أذنه:

ـ مليون جنيه.. شقة المحافظة.. وحج لأبوك وأمك..

لا يعرف كيف يُقيّم هذا الرقم.. أكبر مكافأة حصل عليها لم تتخط الآلاف العشرة.. كان يظن أنه سيشتري سيارة وشقة.. ضاعت مثل كل ما يحصل عليه بين الديون، وأدوية أبويه، وملابس تليق بالبطل. ما زال ينام على الأرض كل ليلة، فيصحو على آلام ظهره.. كل ما جد عليه هو استخدام التاكسيات في انتقالاته. هذه المرة الأمر يختلف، كل شيء سيتغير.. مستقبله سيُشرق بهذه الرفعة.. ماضيه سينهار.. يعرف جيدًا أن أحدًا لن يرحمه.

يقف أمام الثّقل. يبتلع ريقه في قلق.. يتمتم بآيات اعتاد قراءتها في مثل هذه اللحظات.. يسمع صوت الجرس الذي يعلن عن بدء العد لرفعته.. يرى أصدقاءه يلوحون له بالعلم.. رئيس الاتحاد يجلس إلى جوار السفير.. ينظر إلى حمله الذي ازداد ثُقلًا بسنين مضت، وأخرى آتية.. بأحلامه وأحلام غيره.

يتسمَّر مكانه مغمضًا عينيه، يفرك مدربه الواقف على بعد أمتار كفيه في قلق.. ترتفع تمتماته فتنتقل عبر (المكروفون) المُثبَّت في الأرضية:

ـ مصر.. أنا نافع.. ما تشتمش أمي.. الريس عارفني..

يتعالى صوت مدربه في قلق:

ـ فُوق يا بسيوني.. فاضل خمس ثوانٍ.

شقة المحافظ.. الحج.. العربية.. البت صفاء..

ـ ثانيتين يا «بسيووووونييي».

ينحني ليحكم قبضتيه على حمله وهو يصرخ بصوت خرج من أعمق أعماقه:

ـ يالللللا رب..

بلا سفينة

خوفي يفوق حزني.

موت زوجتي الحبيبة المفاجئ، إعصار عصف ببيتنا الهادئ على حين غِرة. عندما عرفت كان أول ما فعلته، أن أمسكت بالهاتف طالبًا من أختي أن تأخذ «يوسف» من المدرسة إلى بيتها.. ولدي الوحيد ذا السنوات الست، أنهيت المكالمة وجلست أبكي وحيدًا.

يومها تعجبتُ عندما عدت من العمل فلم أسمع صوتها مرحبًا مع دخولي كالمعتاد! نظرت إلى الساعة المعلقة، نائمة حتى الآن؟! منذ ساعات قليلة كنا معًا، طبعت على خدي قبلة دافئة قبل أن يذهب كل منا في طريقه. أهزها في غضب مصطنع ساخرًا من كسلها يتحول إلى هلع عندما لا تجيب، الطبيب الذي أتى بعد دقائق أكد لي الحقيقة القاسية.. ماتت حبيبتي.

بعد يومين من وفاتها، زرته لأول مرة، أعددتُ حوارًا مسبقًا في ذهني مليئًا بتلك الجمل السخيفة:

ـ سافرت... ستأتي لك بأشياء جميلة.

فاجأني بأن جلس معي صامتًا تمامًا، متشاغلًا عني بسفينة خشبية أهدتها له عمته. رفع عن كاهلي حملًا كبيرًا، كلانا يعرف أنها لم تخرج يومًا وتتركه، فكيف أشرح له نظرية السفر هذه؟

أجبت صمته بمثله، وأنا أفكر في مستقبلنا.. منذ أعوام وحياتنا مرتبة، نفطر سويًّا في الصباح نتحرك جميعًا، يذهبان إلى المدرسة، وأنا إلى عملي، نلتقي على الغداء ليحكي كل منا عن يومه. ما أكثر ما أنستني أناشيد «يوسف»، وضحكات أمه، همومي قبل أن أشكوها لهم! أعود في المساء فيجري عليَّ ولدي، تتصنع أمه الغضب؛ لأنه أصرّ أن يتناول عشاءه معي. أتصنعه بعد قليل؛ لأنه يرفض أن يبدأ نومه إلا في حضنها، الحقيقة أنني لا أذكر هبوب رياح الغضب الحقيقية على ذلك البيت أبدًا.

سألته عن أخبار المدرسة، فأجابني بهزات متقطعة من رأسه ألّا بأس. وإن كان يريد شيئًا، هز رأسه نافيًا. أقلقتني قلة كلامه على غير المعتاد.. لكني لم أكن قادرًا على الكلام. عندما تشاغل بسفينته مرة أخرى.. أشحت بوجهي

بعيدًا، مخفيًا دمعتي عندما تذكرت أن الربان والراكب قد فقدا السفينة التي كانت تقلهما عبر الأمواج في يسر.

عاد ولدي إلى البيت أول أمس مصحوبًا بهديتين من أختي، أوضحت لي أنهما: خادمتها لترعاه، وأصيص فيه نبتة صغيرة ليرعاها. حاولت أن آخذه في حضني، لكنه أجفل ودخل غرفته فتركته في استسلام.

نجح ترتيبها، فالخادمة توقظه.. تعد له إفطاره إلى أن يأتيه «أتوبيس» المدرسة. في المساء يقضي وقته في غرفته مع نبتته التي كان يرعاها باهتمام.

تغيرت طباع بيتنا. فهو يرجع من المدرسة فيدخل غرفته ويغلق الباب. وأنا طيلة الوقت جالس في غرفة الاستقبال صامتًا، بعد أن تركت عملي الإضافي لأتواجد في المنزل فترة المساء من أجله. كلما حاولت أن أتحدث معه يجيبني باقتضاب، أو بهزّات من رأسه، فألمح في عينيه دموعًا متحجرة تلمع، فأنهي الحوار خشية أن تنزل دموعه فأنهار أنا أيضًا. حتى ساعة الطعام.. أصبح يأخذ طبقه ويدخل غرفته ليأكل وحيدًا، وأصبحت أنا أيضًا آكل وحيدًا.. متحسرًا على أيام كان يضج فيها هذا البيت بالفرحة والضحكات في أوقات الطعام.

قمت من مكاني فزعًا عندما سمعت صرخة مكتومة من الخادمة. مصدرها غرفة الصغير. دخلت عليها فوجدتها تشير إلى المائدة الصغيرة التي وضع عليها نباته الجديد، تغطيه المئات من النمل من مختلف الأحجام، مركزها فوق النبتة الصغيرة. مدت يدها لتأخذه، قفز صغيري في عنف لم أعهده فيه، خطفه منها، انتقلت بعض الحشرات الصغيرة إلى يديه.. سقط منه الإناء وهو يحاول أن ينفضهما، متحطمًا إلى قطع صغيرة. أنظر إلى الحطام في دهشة!! بين الطمي بقايا طعامه.. قطع من اللحم، بعض الخضروات والأرز. أنظر إليه مستفسرًا.. يجلس على الأرض باحثًا بين كتل الطمي عن شيء ما. يخرج صورة صغيرة لأمه، يمسكها في إحباط.. يهز كتفيه:

ـ لم تكبر! يقبلها بالرغم من كل ما يكسوها، وينفجر في البكاء.

أجلس إلى جواره.. آخذه بين ذراعي لأول مرة منذ موتها، يسألني بصوت متهدج:

ـ ألن تعود أمي مرة أخرى؟!

أهزُّ رأسي نافيًا بأسى، وأنا أحاول التماسك، يسألني وهو ينتحب في صدري:

ـ لماذا تركتها تموت؟

يغلبني البكاء فلا أقاومه.

أنام إلى جواره في سريره.. أشرح له أنني لم أتركها ولا هي تركته. أحكي له عن الجنة وما فيها، وعن راحة يجدها الموتى في رؤية أحبابهم يعيشون في سلام. في الصباح نفطر سويًّا، إلى جوارنا إطار ذهبي صغير فيه صورة الأم.. ملامحها واضحة لكل منا، حتى وإن غطَّى أطرافها.. بعض التراب.

لا مفــر

لشد ما تكره دخول الحمامات في الأماكن العامة. تنتابها أفكار سوداء متضاربة.. كل شيء يدعو لعدم الراحة. الأصوات تتضخم عشرات المرات، تسترجع ما سمعت من صديقات لا تذكرهن أو ربما من عقلها نفسه عمن يضعون كاميرات مراقبة في الأسقف، وعن الرجال الذين يقتحمون حمامات النساء، ويمتلئ رأسها بوساوس عن العدوى التي قد تصيبها، وهي ـ بطبعها ـ ممن يَشحن بوجههن بعيدًا عن طريق الذبابة بدلًا من أن يذبُّوها.

غطت القاعدة بالمناديل بعد أن رشتها بالكولونيا. جلست قلقة، المساحة ضيقة جدًّا. الحائطان عن يمينها ويسارها يزيدان من شعورها بالانقباض. أفلتت منها صرخة قصيرة وهي ترى عينيه من تحت حدّ الباب. يمد رأسه داخلًا وخارجًا عدة مرات. يكاد قلبها يتوقف فزعًا وهي تراه بهذا القرب. تتسمر مكانها وهي تتمنى أن يذهب بعيدًا. تتلفت يمينًا ويسارًا كما لو كانت تبحث عن مهرب لها بعيدًا عن طريقه. يغيب عن نظرها فتقرر أن تغادر فورًا تاركة له المكان بما فيه. تمتد يداها مرتعشتان لتلملم ملابسها. يجري تجاهها فجأة فيزيد من فزعها، تتعالى صرخاتها، تركله في عنف ليبتعد عنها، يصطدم بالحائط، ينقلب على ظهره. يعتدل في لحظة ليجري نحوها مترنحًا. تستجمع خوفها وترفع قدميها سويًّا لتهوي بهما عليه وهي تصرخ متقززة..

ترتدي ملابسها في لحظات. حاجتها التي كانت ملحة غابت تمامًا. تتخيله ينهض ويجري نحوها بدمائه لينتقم، فتبتعد في حركة سريعة لتفتح الباب مستجيبة لطرقات العاملة التي جاءت فزعة. تنظر إلى الجسد الدامي المسحوق. تهز رأسها في إعجاب:

ـ شَجَاعة!!

تنظر إليها في شرود. تهز رأسها نافية وهي تهمس بصوت مبحوح:

ـ خوف!!

آثـار على الزجـاج

القصة الحاصلة على جائزة في مهرجان
ساقية الصاوي للقصة القصيرة جدًّا لعام ٢٠٠٩.

عالقة في الزحام مرة أخرى.

توقف الطريق عن الحركة تمامًا. أبحث عن السبب. إشارة المرور مطفأة، العديد من رجال الشرطة يشرفون على إغلاق الطريق، أكتافهم تحمل نجومًا ونسورًا وسيوفًا، لا بد أن أحد البشر ذوي القدرات الخاصة سيمر بعد قليل أو كثير. إذًا.. فلينتظر الجميع.

ألقي نظرة على مقياس حرارة الجو الموجود في سيارتي. أتبعها بأخرى في المرآة على صغيري الجالس في مقعده المثبت في الأريكة الخلفية منشغلًا بلعبته، يقترب من نهاية عامه الثاني. أحمد الله على تكييف الهواء الموجود فيها، فأنا أخاف عليه حرارة الجو. أدندن مع الأغنية الصادرة من جهاز التسجيل. الوقت يمر ببطء، لا بأس فأنا ذاهبة لزيارة أمي، وإن كنت أشفق على أصحاب المواعيد المهمة ممن حولي.

أنتبه على نقر خفيف فوق زجاج نافذتي. يطالعني وجهها الرقيق الذي لا تخف معالمه الأوساخ التي تغطيه. عمرها لا يزيد على ست سنوات، شعرها الذهبي المحتاج إلى تهذيب، عيونها العسلية الواسعة، ووجهها الذي لوحته الشمس، يرسمون على شفتي ابتسامة منبعها قلبي.

تشير إلى علبة المناديل التي تحملها، أضغط الزر فاتحة نافذتي، تلفحني الحرارة القادمة من الخارج. أنقدها ثمنًا مضاعفًا، وألقيها في الخلف مع العلبة التي اشتريتها بالأمس. تبتسم ابتسامة واسعة. تقع عيناها على ولدي فتغيب ابتسامتها. تختفي من أمامي في لحظات.

أنشغل بالأغنية مرة أخرى. صبري يكاد ينفد. تتفقد عيناي حال الصغير، أجده مشغولًا بالنافذة المجاورة له. ألتفت فأجدها مرة أخرى، ألصقت وجهها بزجاج النافذة، كفيها إلى جواره يتركان أثرهما كلما انزلقا إلى أسفل. تحدق فيه في صمت كأنها تمثال جامد. ابتسمت لها في حنان. أحاول الانشغال عنها. لا أستطيع. عيناها لا تتحولان عنه، أخافني شكلها. أشرت لها لتبتعد، لكنها لم تتحرك. انطلق لساني بآيات من الوقاية من الحسد. أعرف أن الأطفال لا

يحسدون. من يضمن لي؟ أطلق بوق السيارة مرتين فلا أجد منها أيّ حركة. أنزل صارخة فيها، تتجاهلني، أدور حول السيارة، تجري مبتعدة قبل أن أصل إليها، فيعتريني شعور بالراحة.

أعود إلى مقعدي. ألتفت إلى النافذة مرة أخرى، أخافتني ولا شك. ألمح آثار وجهها وكفيها على الزجاج وولدي يضع كفه عليها من الداخل. أحاول تجاهله. لا أستطيع أن أقاوم، أمد يدي لألتقط منديلًا وأنزل لأمحو ما تبقى من تلك الآثار. أجد بعض الصعوبة فأكتفي بما مسحته وأعود لمقعدي.

يطول الانتظار. أفتش عن الصغيرة، لا أراها. الوقود يوشك على النفاد. ليس أمامي سوى إطفاء التكييف. أتذكرها فأكتفي بفتح النوافذ الأمامية داعية الله أن يفتح لنا الطريق.

يبدأ الطريق في الحركة ببطء. أتنهد في راحة. فجأة، ألمحها تجري نحو السيارة، تلقي على ولدي شيئًا ما، وتجري مبتعدة في لحظات.

أطلق صرخة رعب وأنا أوقف السيارة. أجري إلى صغيري باحثة عما ألقته عليه. قطعة صغيرة من الشيكولاتة، لم تفتح من قبل، ورقتها الممزقة وأطرافها المتآكلة يؤكدان أنها كانت تدخرها منذ بعض الوقت. أبحث عنها فأراها تجري بين السيارات كالفراشة الرقيقة.

أواصل طريقي أراها تنظر إلى سيارتي ملوحة بيدها وهي تبتعد في المرآة. تسقط من عيني دمعة، وأنا ألمح صغيري محدقًا في بقايا آثارها.. على الزجاج.

نشــاز...!!

يجلس مستلقيًا على الأريكة في استرخاء، يبتسم سعيدًا وهو ينصت، يهز رأسه كأنه يسمع ألحانًا شجية.. يسحب أنفاسًا عميقة من سيجارته في تلذذ مع رشفات من فنجان قهوة الصباح.

ـ اغسل يديك قبل الأكل، وبعد الأكل.

تتسع عيناه في دهشة، يسعل شاعرًا بأنفاسه تقتله.

ـ نم مبكرًا، واستيقظ مبكرًا.

يقفز من مكانه لاصقًا عينيه بشاشة التلفزيون، يرفع الصوت في هلع قدر ما يستطيع.

ـ لا تنصت لأصدقاء السوء.

يدور كالمجنون حول نفسه في الغرفة.. ينطلق إلى مكتبه ليخرج منه بعض الأوراق.

ـ لا ترفع صوتك أمام والديك.

يقلب في ملزمة الأوراق التي بين يديه.

ـ وأخيرًا.. لا تتمن لمن حولك إلا الخير.

يغطي رأسه بيديه.. يصرخ مناديًا زوجته وابنته والخادمة.. يلعنهم ويسبهم بما لم ينطقه لسانه من قبل.. يحاول أن يتنفس فلا يستطيع. تنساب دموعه سريعًا، يمسك صدره ويسقط مغشيًّا عليه.

أفاق بعد سواد لم يحصه.. خراطيم تتدلى من ذراعيه، قناع الأوكسجين يحيط بفمه وأنفه. أعوام عمره الستين لم تحتمل الصدمة.. ينادي زوجته:

ـ هل سأل عني أحد.

تهز رأسها وهي تقرب فمها من أذنه:

ـ سألوا عنك عشر مرات في اليومين السابقين.

يهز رأسه محسورًا في فهم.

يعرف جيّدًا أنه في مصيبة كبرى، تفاصيل ما حدث لا تهمه، المهم ما سيحدث.. هو كاتب خطبه منذ ثلاث سنوات. أعجبهم كثيرًا لكلماته الرنانة، وتراكيبه المعقدة التي ينشغل الجمهور بمحاولة فهمها عن إدراك حقيقة ما قيل. تغيرت حياته كثيرًا، من مجرد مدرس أول لغة عربية في إحدى المدارس الحكومية، يرتجف أمام مفتش الوزارة.. إلى مستشار لوزيره اسمًا، وكاتب خطب. كثيرًا ما يلتقي بمن يرتجف أمامهم الوزير شخصيًّا.. يقرأ معهم الخطبة، ويراجع نطقها.. أو يرسلها إليهم فتُراجع.. ويتصلون به في حالة إضافة أي تعديل. باقي الوقت يعمل مراجعًا بأجر للغة العربية: رسائل دراسات عليا، خطابات رسمية، كتب أدبية.. يكتب أيضًا كلمات في السر لبعض رجال الأعمال.. ولأن عينه «فارغة» فهو يكتب أيضًا الشعارات التي ترقد على خلفيات الكراسات التي توزع في المدارس الحكومية.

يسمع نقرًا على باب الغرفة.. يعرفهم جيّدًا، يغمض عينيه متظاهرًا بالموت، يميل على أذنه هامسًا:

ـ الطبيب قال إنك تستطيع أن تغادر المستشفى الآن.. وأنت مطلوب على وجه السرعة.

ما حدث كان قدرًا ولا شك.. فالخطبة طُلبت منه في خلال أربع وعشرين ساعة.. روائح الحرب هبت على الجيران، الأزمة طاحنة، الأسعار، مظاهرات في الجامعة، مصادمات بين الشعب والشرطة.. لا بد من خطبة وصفوها له في الهاتف بأنها خطبة «ثورية مثيرة ثائرة».. يهدأ بنهايتها الجميع.

كان يستمتع بخطبه.. يعيش كأنه هو من سيلقيها.. انتقى كلمات من قبيل الحس الوطني، وسلام الأقوياء، وحنكة القادة، وجوع الصابرين. نمقها جيّدًا.. تركها على مكتبه وانطلق إلى عمله.

ـ ميعاد الخطاب تقدم.. نريده الآن.

اتصل بزوجته في الهاتف، أكد عليها أن تعطيهم الخطاب. لم يطمئن إلا بعدما قرأت له أول صفحة منه.. ما الذي أضاف تلك الصفحة اللعينة التي كان قد كتبها لكراسة المدارس الابتدائية؟ لم يستطع أن يغادر قبل أن يسأل زوجته في رجاء، تخبره في تردد أن حفيده كان يعبث بأوراقه حين جمعتها على عجل

لتسلمها إليهم.. ابتسم في استسلام.. كتب لها ورقة طويلة بممتلكاته وديونه وأرصدته.. أفلتت منها نظرة غاضبة بالرغم من الموقف الشائك.

ـ كيف فعلتها؟

جاء السؤال من الرجل الأنيق الذي يراه لأول مرة، أجابه بصوت مبحوح:

ـ لم أفعل شيئًا.

ـ آه.. أنت دخلت المستشفى قبل الخطاب..

يضغط أزرار جهاز التحكم.. ينطلق الخطاب الذي يعرفه جيّدًا.. اغسل، نم، لا تنصت، لا ترفع صوتك، لا تتمن.. ينكّس رأسه في خوف.. تنتقل كاميرات التلفزيون إلى وجوه الموقرين.. شفاه تبتسم ساخرة.. عيون تتسع في دهشة.. البعض يهمس إلى من بجواره. بنهاية الكلمة تعالى التصفيق حادًّا كالمعتاد.. عرف أن كل الصحف في اليوم التالي كانت تناقش الدعوة العبقرية إلى العودة إلى القواعد الأساسية من أجل النهضة. صحف المعارضة ردت في حزم بأن الفكرة نبيلة لكن وقت التنفيذ غير مناسب.. مظاهرات الجامعة خرجت تندد بالحجر عليهم في مواعيد النوم وغسيل الأيدي وخلافه.

ما زال هو كاتب الخُطب حتى الآن.. رغم أنه أصبح وزيرًا للتعليم بعد شهر واحد.. يراجع بنفسه الخطب قبل تسليمها يدًا بيد.. إلا أنه يحتار أحيانًا بين أكثر من خطاب، وقتها يفرش أوراقه على الأرض مطالبًا حفيده ذا العامين باختيار ما يناسب.. المرحلة الحالية..